مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف

مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف

لقمان الحكيم
رضوان جمال الأطرش

للنشر بماليزيا العالمية الإسلامية الجامعة
IIUM Press
Gombak · 2017

الطبعة الأولى 1438هـ/2017م
© IIUM Press, IIUM

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر عضو في مجلس النشر العلمي الماليزي

(Majlis Penerbitan Ilmiah Malaysia – MAPIM)

جميع حقوق الملكيّة الأدبيّة والفنيّة محفوظة للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر (IIUM Press)

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملًا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكومبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطية من الناشر.

ISBN 978-967-418-988-4

Published and printed in Malaysia by

IIUM Press

International Islamic University Malaysia

P.O Box 10, 50728 Kuala Lumpur, Malaysia

Tel: +603-6196 5014; Fax: +603-6196 4862/6298

فهرس المحتويات

التوطئة
مقدمة الكتاب
الفصل الأول: الشفاعة الأخروية وأنواعها 1
الفصل الثاني: الإمام الزمخشري وتفسيره الكشاف 18
الفصل الثالث: تفسير الإمام الزمخشري للآيات القرآنية المتعلقة بالشفاعة الأخروية 43
الفصل الرابع: تحليل لموقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية في تفسيره 62
الخاتمة 103
المصادر والمراجع 115

التوطئة

يهدف هذا الكتاب إلى دراسة مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره، وبيان أدلته ومناقشتها من خلال كتابه الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. وهذا الكتاب يعتمد على المنهج الاستقرائي من خلال الاطلاع على الآيات القرآنية ذات الصلة بموضوع الشفاعة الأخروية، ثم الرجوع إلى كتب التفاسير المعتبرة وبعض الأحاديث النبوية الصحيحة، والنظر في كل ما ورد ذكره من الشفاعة الأخروية. واستخدم المؤلفان أيضًا المنهج التحليلي، وذلك بدراسة تحليلية لكل المعلومات الواردة في هذه القضية، واستنباط موقف الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف من قضية الشفاعة الأخروية. ومن أهمّ النتائج التي توصل المؤلفان إليها أن الإمام الزمخشري يرى أن الشفاعة الأخروية المذكورة في الكتاب ليست سوى رفع الدرجات وزيادة ثواب المشفوع فيهم من المؤمنين، أما العصاة وأصحاب الكبائر، فهم في نار جهنم خالدون فيها أبدًا. وهذا مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون أن الشفاعة الأخروية ممكنة لأهل الكبائر من المؤمنين إذا ماتوا على التوحيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين، ولا عدوان إلا على الظالمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد النبي الأمين بعثه الله رحمةً للعالمين، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة حتى أتاه اليقين.

أما بعد!

فمن المواضيع المهمّة التي ذكرها القرآن الكريم، موضوع الشفاعة الأخروية. ويقصد بالشفاعة الأخروية "مسألة الغير أن ينفع غيره أو أن يدفع عنه مضرة، ولابدّ من شافع، ومشفوع له، ومشفوع فيه، ومشفوع إليه"[1]، أو "التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فتكون الشفاعة دائرة على أمرين: جلب المنفعة ودفع البلاء"[2].

ومن الآيات القرآنية ما تدل على إثبات الشفاعة الأخروية، منها: قوله ﷻ: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزمر:٤٤]، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾ [طه:١٠٩]، ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف:٨٦]، ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ [مريم:٨٧]، ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [يونس:٣]، ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا**

---

[1] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: عبد الكريم عثمان، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص٦٨٨.

[2] محمد الصالح العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، (الرياض: دار ابن الجوزي، ط٧، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٤٠٦.

خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

ومن جهة أخرى، هناك آيات قرآنية تدل على نفي الشفاعة الأخروية، منها: قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾** [البقرة:٤٨]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [البقرة:٢٥٤]، ﴿**أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾** [يس:٢٣]، ﴿**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [الأنعام:٥١]، ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [يونس:١٨]، ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الشعراء:١٠٠-١٠٢]، ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾** [السجدة:٤]، ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾** [غافر:١٨]، ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾** [المدثر:٤٦-٤٨].

ومن المفسرين الذين اهتمّوا بهذه القضية المهمّة الإمام الزمخشري، وهو أبو القاسم محمود بن عمر "جار الله"، كان حنفي المذهب، ومعتزلي العقيدة. ولد في خوارزم سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي في جرجان سنة (٥٣٨هـ)[٣]. وتفسيره الكشاف من أشهر كتب التفسير بالرأي[٤]. وقد تأثر كثير من المفسرين بدقة بلاغته وفصاحته وبيان إعجاز القرآن في ذلك[٥].

---

[٣] منيع عبد الحليم محمود، **مناهج المفسرين**، (القاهرة: دار الكتاب المصرى، ط١، ١٩٧٨م)، ص١٠٥.

[٤] مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، (الرياض: منشورات العصر الحديث، د.ط، ١٩٩٠م)، ص٣٨٩.

[٥] محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، (طهران: الثقافة الإرشاد الإسلامي، د.ط، ١٢١٢هـ)، ص٥٧.

يقول الإمام الزمخشري في تفسير قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ [البقرة:٤٨]: "فإن قلتَ: هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلتُ: نعم، لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقًا أخلَّت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعةَ شفيع، فعلم أنها لا تقبل للعصاة. فإن قلتَ: الضمير في ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلتُ: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾: إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها. ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزي عنها شيئًا، ولو أعطت عدلًا عنها لم يؤخذ منها"[٦].

فهذا القول يدل على أن الإمام الزمخشري نفى الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر يوم القيامة، بينما أثبتها من المفسرين الإمام الطبري[٧]، والرازي[٨]، والقرطبي[٩]، وابن كثير[١٠]، والبيضاوي[١١]، وابن عاشور[١٢]، والشنقيطي[١٣]، وغيرهم.

فهذه الدراسة لا تخلو من أهمّية إلى حد ما، يريد المؤلفان أن يفهما ويقارنا ويُرجِّحا الرأي المناسب.

تكمن مشكلة البحث في أن موضوع الشفاعة الأخروية من المواضيع المختلفة فيها، وذلك لأن الآيات القرآنية ذكرت الشفاعة بشكل عام. وقد تحدث كثير من العلماء عن الشفاعة وبينوا معناها، وقد اختلفوا في تعريفها الاصطلاحي لفظًا مع اتفاقهم على وقوعها يوم القيامة، واتفاقهم على معناها

---

[٦] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٢٦٦.

[٧] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ج١، ص٦٣٧.

[٨] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ج٣، ص٥٨.

[٩] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ج٢، ص٧٨.

[١٠] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج١، ص٢٥٦.

[١١] عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ص٣١٩.

[١٢] محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، ١٩٨٤م)، ج١، ص٤٨٥.

[١٣] محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت)، ج١، ص٩٠.

الإجمالي، اللهم إلا ما ورد من خلاف في إطلاقها لسائر الموحِّدين أو تحديدها للتائبين منهم.

ومما لا ريب فيه أن الشفاعة الأخروية تقع للمؤمنين بلا خلاف، وهي غير واقعة للمشركين الكفار. وإنما مدار الخلاف في إثباتها للعصاة وأصحاب الكبائر من الموحِّدين. وقيل: إن الإمام الزمخشري من العلماء الذين نفوا الشفاعة لهم، وأيضًا أنه كان يؤوّل الآيات القرآنية وفقَ مذهبه وعقيدته الاعتزالية. ولذلك، يريد المؤلفان أن يفهما ويقارنا ويُرجِّحا الرأي المناسب.

من أهمّ الأسئلة التي سيجيب عنها البحث ما يأتي:

١. ما مفهوم الشفاعة؟ وما أنواعها؟
٢. من الإمام الزمخشري؟ وما مكانة تفسيره الكشاف؟
٣. ما موقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية في تفسيره؟

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١. بيان مفهوم الشفاعة وأنواعها.
٢. التعرف على سيرة الإمام الزمخشري وبيان مكانة تفسيره الكشاف.
٣. إبراز موقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية في تفسيره.

إن موضوع الشفاعة الأخروية من الموضوعات المهمّة التي ينبغي أن تُبحث في بحث مستقل. ومع ذلك، فإن موضوع الشفاعة جد خطير، والخلاف فيه وارد، وبالأخصّ في إثبات الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر من الموحِّدين. فكان لابدّ من الاطلاع عليه، لكي لا يقع الخطأ في مفهومه. ولذلك، يُحلِّل هذا البحث مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف من جهة، وعند المفسرين من جهة أخرى مع بيان مقارنة علمية، ليصل هذا البحث إلى مقاصده.

يتناول هذا البحث تفسير الإمام الزمخشري للآيات القرآنية المتعلقة بالشفاعة الأخروية، وعددها ست عشرة آيةً. (الزمر:٤٤، السجدة:٤، البقرة:٢٥٥، يونس:٣، طه:١٠٩، الأنبياء:٢٨، الزخرف:٨٦، مريم:٨٧، البقرة:٤٨، يس:٢٣، البقرة:٢٥٤، الأنعام:٥١، غافر:١٨، يونس:١٨، الشعراء:١٠٠، المدثر:٤٨).

أما المنهج الذي سيتناوله هذا البحث فإنه مُلخَّص فيما يلي:

١. **المنهج الاستقرائي**: يستخدمه الباحثان للاطلاع على الآيات القرآنية ذات الصلة بموضوع الشفاعة الأخروية، ثم للرجوع إلى

التفاسير المعتبرة، والنظر في كل ما ورد ذكره من الشفاعة الأخروية والبيانات والمعلومات المتعلقة بالإمام الزمخشري من خلال تفسيره.

٢. **المنهج التحليلي**: يستخدمه لدراسة تحليلية لكل المعلومات الواردة في هذه القضية، مستندًا إلى مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف.

ومن الجدير بالذكر أن موضوع الشفاعة قد كتب فيه بعض العلماء، إلا أن كتاباتهم لا تخلو من النقص. ومن أهمّها:

١. **الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها**[١٤] ألفه أحمد عمر هاشم. قدم المؤلف هذا الكتاب ليردّ فيه على من أنكر الشفاعة، وقد أورد الأدلة عليه من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. وبيّن المراد بالآيات التي استدل بها من أنكر الشفاعة، موضحًا أنها غير واردة فيمن مات على التوحيد بل في شأن غير المسلمين، وأن غيرها مما ورد في شأن المسلمين يحمل فيها المطلق على المقيد كما هو موضح في الكتاب، وإن كان ظاهرها جعل أوهام البعض تقول لا شفاعة إلا أن الآيات ذاتها توضح بأنها بإذن الله ﷻ ولمن ارتضى ولو رجع المنكرون للشفاعة لتفسير الآيات وأسباب نزولها وصحيح الأحاديث النبوية لما وقع أحد في مثل هذه الأوهام والشبه. وهذا البحث لا يتناقش موقف الإمام الزمخشري من موضوع الشفاعة الأخروية.

٢. **الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة**[١٥] ألفه إبراهيم بن عبد الله الحازمي. تحدث المؤلف في هذا الكتيِّب عن الشفاعة وشروطها وأسبابها مستندًا إلى الآيات القرآنية. وعرض نموذجًا عن شفاعة النبي ﷺ لأمته، وشفاعة الأولاد لآبائهم، وشفاعة القرآن لقارئه. والكتاب مقتصر في مباحثه على موضوع الشفاعة بشكل عام دون أن يخصص دراسة لموقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية.

٣. **الشفاعة عقيدة أهل السنة والجماعة ورد شبهات**[١٦] ألفه أحمد شريف. احتوى هذا الكتاب على ثلاثة فصول: الفصل الأول في التمهيد، والفصل الثاني في منكري الشفاعة، والفصل الثالث في ماهية الشفاعة.

---

[١٤] أحمد عمر هاشم، **الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها**، (القاهرة: مركز الصالح كامل، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

[١٥] إبراهيم بن عبد الله الحازمي، **الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة**، (الرياض: دار الشريف، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

[١٦] أحمد شريف، **الشفاعة عقيدة أهل السنة والجماعة ورد شبهات المنكرين قديمًا وحديثًا**، (مصر: دار الدندرة، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

وذكر المؤلف في هذا الكتاب أن الشفاعة من أهمّ موضوعات العقيدة، وهي مما يفرق بين عقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق الأخرى التي وصفها سيدنا رسول الله ﷺ. والكتاب جيد لكنه لم يتطرق إلى الإمام الزمخشري ولماذا نفي الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر. وهذا ما يقوم البحث لبيانه.

٤. **الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها**[١٧] ألفه ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع. بحث المؤلف في هذا الكتاب موضوع الشفاعة بحثًا موضوعيًا منهجيًا، بيّن فيه معنى الشفاعة لغةً واصطلاحًا، وأدلة ثبوت الشفاعة من الكتاب والسنة والإجماع، وأنواع الشفاعة، وشروط الشفاعة وأسباب حصولها، والشفاعة عند المخالفين لأهل السنة والرد على شبههم في نفي الشفاعة، ودحض حججهم في ذلك. إلا أنه في باب إيراد الأدلة من السنة على إثبات الشفاعة قد اقتصر على بضعة أحاديث في هذا الباب، متخذًا إياها نماذج واضحة بينة في إثبات الشفاعة دون أن يبيّن موقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية.

٥. **الشفاعة الأخروية**[١٨] ألفه سلطان بن محمد بن زهران الحراصي. تمحور هذا الكتاب على ثلاثة فصول: الفصل الأول الشفاعة وأنواعها، والفصل الثاني الشفاعة في القرآن الكريم والسنة النبوية، والفصل الثالث الشفاعة للمصرين على الكبائر بين النفي والإثبات. فيعتبر هذا الكتاب من الكتب الجيدة التي تتحدث عن تعريف الشفاعة، وتوضيح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتحدثة عن الشفاعة بأنواعها، وتوضيح آراء الفرق الإسلامية وأدلتها في شفاعة العصاة وأصحاب الكبائر من أهل التوحيد. لكن المؤلف لم يكشف لنا كشفًا عميقًا جهود الإمام الزمخشري في موضوع الشفاعة الأخروية. وهذا ما يقوم به هذا البحث.

٦. **الشفاعة العظمى في يوم القيامة**[١٩] ألفه فخر الدين الرازي. وهذا الكتاب مُرتَّب على ثلاثة فصول: الفصل الأول في الإيمان والأعمال، والفصل الثاني في أنواع الشفاعة، والفصل الثالث في الوعد بالجنة والوعيد بالنار. فيرى الباحث أن هذا الكتاب من الكتب المهمّة التي تتناقش عن

---

[١٧] ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، **الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها**، (الرياض: دار أطلس، د.ط، ١٤١٧هـ).

[١٨] سلطان بن محمد بن زهران الحراصي، **الشفاعة الأخروية**، (القاهرة: مطابع النهضة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

[١٩] فخر الدين الرازي، **الشفاعة العظمى في يوم القيامة**، تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد حجازي السقا، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ط١، ١٩٨٨م).

الإيمان والأعمال، والشفاعة لعصاة المسلمين، والوعد من الله ﷻ للطائعين بالجنة، والوعيد من الله ﷻ للعاصين بالنار مقارنةً بين أهل السنة والجماعة، والمعتزلة، والمرجئة، والقدرية. ولكن مناقشته لم تستند إلى تفسيره الكشاف. وهذا ما يحلل به هذا البحث.

٧. **الشفاعة**[٢٠] ألفه أبو عبد الرحمن مقبل الوادعي. تحدث هذا الكتاب عن الشفاعة من خلال النظر في كثير من الأحاديث النبوية، ومعرفة مدى صحتها وضعفها مبنيًا كثيرًا من الردود التي صدرت عن بعض علماء الأزهر الشريف الذين أنكروا الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر مثل الدكتور مصطفى محمود حيث كانت الردود منصبة حول إثبات الشفاعة الأخروية بالأدلة النصية من غير تطرق إلى أدلة من ينكرها. كل هذا كان من غير أن يتطرق المؤلف إلى موقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية.

٨. **لا...بل الشفاعة ثابتة ردود العلماء على منكرى السنة والشفاعة**[٢١] ألفه عبد المعز عبد الحميد الجزار، وعبد الحفيظ محمد عبد الحليم. تناول هذا الكتيِّب ثبوت الشفاعة بالقرآن والسنة، وذكر أيضًا إنكار حجية السنة دليل فساد المنهج الفكري والعلمي. وجمع المؤلف فتاوى حول الشفاعة، كالشفاعة ثابتة في القرآن والسنة لشيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، كما تناول ثبوت الشفاعة بالقرآن والسنة لأحمد عمر هاشم الذي بيّن أن الشفاعة تبيّن منزلة رسول ﷺ عند ربه، كما بيّن أن المراد من الشفاعة ليس ترك العمل ولكنه الأمل من أجل إحسان العمل لإسماعيل الدفتار، الشفاعة حق معلوم من الدين بالضرورة لجودة محمد أبو اليزيد، الآيات الصريحة تؤكد الشفاعة والتشكيك في السنة مرفوض لإسماعيل عبد الرحمن.

خلاصة القول: أن المؤلفان لم يجدا بحثًا مستقلًا يعالج هذا الموضوع بتبيين موقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية. وعلى هذا فكل هذه الدراسات السابقة سيستفيد منها الباحثان من حيث منهجها ومضمونها وأفكارها لكنها ليست كافية. ولذلك، في هذا البحث سوف يكشف عن كل ما يتعلق بالإمام الزمخشري وموقفه من الشفاعة الأخروية في تفسيره الكشاف.

---

[٢٠] أبو عبد الرحمن مقبل الوادعي، **الشفاعة**، (الكويت: دار الأرقم، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م).

[٢١] عبد المعز عبد الحميد الجزار، وعبد الحفيظ محمد عبد الحليم، **لا...بل الشفاعة ثابتة ردود العلماء على منكرى السنة والشفاعة**، (القاهرة: مطابع روز اليوسف الجديدة، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

الفصل الأول
الشفاعة الأخروية وأنواعها

أولًا: تعريف الشفاعة لغةً واصطلاحًا

تعريف الشفاعة لغةً

الشفاعة مأخوذة من الشفع الذي هو ضد الوتر. وهو جعل الفرد زوجًا. يقال: كان وترًا، فشفعه من باب القطع، وتسمى الركعتين شفعًا. وقد تطلق الشفاعة في اللغة على الدعاء. والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه في معنى طلب إليه، والشافع الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه[١].

وقال الجرجاني[٢]: الشفع: الزوج وما يضم إلى الفرد، والشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه[٣].

وقال الراغب[٤]: الشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عنه وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبةً إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة[٥].

وقال السفاريني[٦]: الشفع: ضد الفرد، والشفاعة: ضم شيء إلى آخر ليشفعه بعد أن كان مفردًا[٧].

---

[١] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)، ج٨، ص١٨٤.

[٢] محمد بن علي أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي، ولد سنة (٧٤٠هـ)، وصار إمامًا في العلوم العقلية وغيرها، وطار صيته في الآفاق، وله تصانيف، يقال: إنها تزيد عن الخمسين، منها: رسالة في الوجود، والتعريفات، وحاشية على المطالع، والتحفة...توفي في يوم الأربعاء سنة (٨١٦هـ) بشيراز، ودفن فيها. انظر: محمد بن على الشوكاني، **البدر الطالع المحاسن من بعد القرن السابع**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٣٣١.

[٣] محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص١٦٧.

[٤] الحسين بن علي الأصفهاني أبو القاسم المعروف بالراغب، أديب لغوي مفسر، ذو التصانيف البارعة، توفي سنة (٥٠٢هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٩٢م)، ج٢، ص٢٥٥.

[٥] أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (بيروت: دار الشامية، ط٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٤٥٧.

[٦] محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان الحنبلي، محدِّث وفقيه أصولي، ومؤرِّخ، ولد بسفارين من قرى نابلس، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق، وتوفي سنة (١١٨٨هـ)، ودفن بالتربة الشمالية فيها. انظر: محمد بن صالح العثيمين، **شرح العقيدة السفارينية لمحمد بن أحمد بن سالم بن سليمان الحنبلي السفاريني**، وخرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، (القاهرة: مكتبة الصفا، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٩.

[٧] المرجع نفسه، ص٣٦١.

وسميت الشفاعة بذلك لأن المشفوع له يأتي بالشافع ليطلب له مصلحة، فبعد أن كان واحدًا دخل معه الشافع فأصبحا شفعًا، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له[٨].

من خلال ما تقدم، يظهر لنا أنّ كلمة الشفاعة ومشتقاتها تحتوي على معنى الطلب، والسؤال، والضم، والزيادة، والدعاء، والإعانة، والوسيلة. فالطلب يكون في الغالب عن طريق السؤال، وتكون نتيجته بضم شيء إلى آخر، وفيه زيادة وإعانة وتوسل.

تعريف الشفاعة اصطلاحًا

تحدث كثير من العلماء عن الشفاعة ومعناها، ووصل الحال بهم إلى الاختلاف في تعريفها الاصطلاحي لفظًا مع اتفاقهم على وقوعها يوم القيامة، واتفاقهم على معناها الإجمالي، اللهم إلا ما ورد من خلاف في إطلاقها لسائر الموحِّدين أو تحديدها للتائبين منهم.

ومما لا ريب فيه أن الشفاعة الأخروية تقع للمؤمنين بلا خلاف، وهي غير واقعة للمشركين الكفار. وإنما مدار الخلاف في إثباتها للعصاة وأصحاب الكبائر من الموحِّدين[٩].

ولذلك يظهر أن الشفاعة لها تعريفات مختلفة، ومن تلك التعاريف، نختار الآتي:

١. تعريف القاضي عبد الجبار[١٠]: "مسألة الغير أن ينفع غيره أو أن يدفع عنه مضرة، ولابدّ من شافع، ومشفوع له، ومشفوع فيه، ومشفوع إليه"[١١].

٢. تعريف ابن تيمية[١٢]: "التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فتكون الشفاعة دائرة على أمرين: جلب المنفعة ودفع البلاء"[١٣].

---

[٨] محمد السفاريني الحنبلي، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**، (د.م: المكتب الإسلامي، ط٣، د.ت)، ج٢، ص٢٠٤.

[٩] سلطان بن محمد بن زهران الحراصي، **الشفاعة الأخروية**، ص٨٩.

[١٠] أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسد أبادي الشافعي، شيخ المعتزلة، ولد سنة على وجه التقريب ما بين سنتي (٣٢٠-٣٢٥هـ)، وتوفي سنة (٤١٥هـ). انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص١٣.

[١١] المرجع نفسه، ص٦٨٨.

[١٢] أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، أبو القاسم الدمشقي الحنبلي، ولقبه "شيخ الإسلام" آية في كثير من العلوم، وصاحب التصانيف، ولد سنة (٦٦١هـ)، وتوفي سنة (٧٢٨هـ). انظر: شمس الدين الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٣، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، ج٤، ص١٤٩٦.

[١٣] محمد الصالح العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، ص٤٠٦.

٣. تعريف السيد سابق[١٤]: "سؤال الله ﷻ الخير للناس في الآخرة، وهي بهذا نوع من أنواع الدعاء المستجاب"[١٥].

٤. تعريف ابن عاشور[١٦]: "السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها، أم كانت مجرد سعي المتوسط"[١٧].

٥. تعريف أبو بكر جابر الجزائري[١٨]: "أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي مُلك أو سلطان ليقتضي له حاجته في إعطائه، أو جريمة ارتكبها"[١٩].

وبعد دراسة كل هذه التعريفات الاصطلاحية للشفاعة الأخروية، يمكن تلخيصها في تعريف أكثر شمولًا على الشكل التالي: هي طلب من الله ﷻ لنفع محتاج، أو دفع ضر عنه[٢٠]. ولابدّ من شافع، ومشفوع له، ومشفوع فيه، ومشفوع إليه[٢١]، فهذه الأربعة هي أركان الشفاعة. فتكون دائرة على أمرين: جلب المنفعة ودفع المضرة[٢٢].

ثانيًا: أقسام الناس في الشفاعة وأنواعها

أقسام الناس في الشفاعة

إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم الذين غلوا في إثباتها، فأثبتوها مطلقة؛ وهم المشركون والنصارى، والمبتدعون، حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند

---

[١٤] صاحب كتاب فقه السنة الشهير، وأحد علماء الأزهر، تخرج في كلية الشريعة، اتصل بالإمام حسن البنا، وأصبح عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين منذ أن كان طالبًا. ولد سنة (١٩١٥هـ)، وتوفي سنة (٢٠٠٠هـ). انظر:
http://ar.wikipedia.org/wiki/السيد_سابق

[١٥] السيد سابق، **العقائد الإسلامية**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٢٧٤.

[١٦] محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن القادر بن محمد بن عاشور، نقيب أشراف تونس وكبير علمائها محمد الصادق، له كتب منها: هدية الأريب، شفاء القلب الجريح، حاشية على القطر لابن هشام، توفي بتونس سنة (١٢٨٤هـ/١٨٦٨م). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٧، ص٤٣.

[١٧] محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٤٨٦.

[١٨] هو الشيخ الفاضل الكريم أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، واسمه أبو بكر، والكنية هي الاسم واسم أبيه موسى عبد القادر بن جابر، وجابر جده الأكبر، وكنية الشيخ أبو عبد الرحمن، والشيخ من بني هلال أحد القبائل العربية والتي خرجت من الجزيرة العربية، واستقرت في إفريقا واستوطنتها فهو عربي الأصل. ولد سنة (١٣٤٢هـ). انظر: http://ar.wikipedia.org/wiki/أبو_بكر_الجزائري

[١٩] موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، (د.م: د.ن، د.ط، د.ت)، ص١٢٠.

[٢٠] عبد القادر مصطفى عبد الرزاق المحمدي، **الشفاعة في الحديث النبوي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٢٤.

[٢١] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٨.

[٢٢] محمد الصالح العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، ص٤٠٦.

الله ﷻ يوم القيامة، كشفاعته في الدنيا، حيث اعتقدوا أن هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالًا[٢٣].

القسم الثاني: وهم الذين غلوا في نفيها؛ كالمعتزلة[٢٤]، والخوارج[٢٥]، حيث أنكروا شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعة على التائبين من المؤمنين، لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم، فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له، لا من النبي ﷺ ولا من غيره.

القسم الثالث: وهم الذين توسطوا بين الطائفتين؛ وهم أهل السنة والجماعة، فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوها كلها، بل أثبتوا من الشفاعة ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل[٢٦].

فالشفاعة المثبتة عند أهل السنة هي التي تطلب من الله ﷻ، وهي تكون للموحِّدين بعد إذن الله ﷻ للشافع ورضاه عن المشفوع له، فلا تطلب من غير الله ﷻ، ولا تكون إلا بعد إذنه ورضاه. فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر.

وأما الشفاعة المنفية عندهم، فهي التي نفاها الشرع، وهي التي تطلب من غير الله ﷻ استقلالًا، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة. والمدقق يجد أن رأي أهل السنة والجماعة أكثر واقعية من غيره من الآراء المتطرفة، وذلك لوسطيته ولعقلانيته.

أنواع الشفاعة

تنقسم الشفاعة باعتبار زمانها إلى قسمين:

١. الشفاعة في الدنيا، وهي قسمان:

القسم الأول: الشفاعة الحسنة: وأقصد بالشفاعة الحسنة هي سؤال من عنده سلطة في إسقاط الضرر عن المسلم. ويكون تحت هذا القسم الدعاء للمؤمنين ومراعاة حقوقهم ودفع الشر عنهم وجلب الخير لهم، ابتغاء وجه

---

[٢٣] عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، **الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية عقيدة أهل السنة والجماعة**، (الرياض: دار التوحيد، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ج١، ص٣٢٥.

[٢٤] أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وقرر أن الفاسق في منزلة بين منزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وهو مخلد في النار. انظر: محمد الصالح العثيمين، **جامع شروح لمعة الاعتقاد لإبن قدامة المقدسي**، (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٣٢٠.

[٢٥] أول فرقة، أظهرت الخلاف وفارقت جماعة المسلمين، وهم الذين خرجوا لقتال علي بن أبي طالب ﷺ بسبب التحكيم. انظر: المرجع نفسه، ص٣٢٠.

[٢٦] عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، **الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية عقيدة أهل السنة والجماعة**، ج١، ص٣٢٥.

الله ﷻ دون أخذ رشوة من أجل ذلك وكانت في أمر جائز شرعًا[٢٧]. ولهذا قال النبي ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله ﷻ على لسان نبيه ما شاء»[٢٨].

القسم الثاني: الشفاعة السيئة: هي سؤال من عنده سلطة في إيذاء مسلم وإيقاع الضرر عليه. ويكون بالدعاء على المؤمن وعدم مراعاة حقوقه وإنزال الشر عليه، ابتغاء أخذ رشوة يضيع من خلالها حق المسلم والاستيلاء على ماله[٢٩]. وقال السيوطي: "ذكر الناس عند السلطان بسوء وهي معدودة من الكبائر"[٣٠].

وقد اشتملت هذه الآية على الشفاعتين، حيث قال ﷻ: ﴿**مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا**﴾ [النساء:٨٥]. وقد دلت الآية:

١. على مدح الشفاعة الحسنة الموصلة إلى الحق، وذمّ الشفاعة السيئة المقترنة بالرشوة والتعاون مع الباطل والإثم والعدوان، أو المسقطة لحدٍ من حدود الله ﷻ، أو المضيعة لحقوق العباد.

٢. على المسلم أن يهتمّ بقضايا إخوانه المسلمين، ويسعى في حلها، ولكن وفق ما شرع الله ﷻ.

٣. من سنَّ حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سيئةً فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[٣١].

٢. الشفاعة في الآخرة، وهي قسمان:

القسم الأول: الشفاعة المنفية: وهي التي لم تتوافر فيها شروط الشفاعة[٣٢]، وهذه شفاعة لا حقيقة لها ولا وجود لها، ومن صورها[٣٣]:

١. شفاعة الآلهة التي عُبِدَت من دون الله ﷻ من قبل الكفار والمشركين، سواء المرجو شفاعته ملكًا، أو نبيًا، أو صالحًا، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات أو الجمادات. وذلك لقوله ﷻ: ﴿**أَمِ**

---

[٢٧] انظر: رضوان جمال حسين، **عرض منهجي في التفسير التحليلي: سورة النساء نموذجًا**، (كوالالمبور: مركز البحوث الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ط١، ٢٠٠٤م)، ص٣٠٩.

[٢٨] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم الحديث: ١٣٦٥. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم الحديث: ٦٨٥٨.

[٢٩] انظر: رضوان جمال حسين، **عرض منهجي في التفسير التحليلي: سورة النساء نموذجًا**، ص٣٠٩.

[٣٠] جلال الدين السيوطي، **الإكليل في استنباط التنزيل**، دراسة وتحقيق: عامر بن علي العرابي، (جدة: دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ج٢، ص٥٧٤.

[٣١] انظر: رضوان جمال حسين، **عرض منهجي في التفسير التحليلي: سورة النساء نموذجًا**، ص٣١٠.

[٣٢] سيكون تفصيل شروط الشفاعة في الفصل الثالث اللاحق. انظر:ص٦١.

[٣٣] موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، ص١٢٤.

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ، قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]. ولأن من عبد غير الله ﷻ يكون مشركًا كافرًا، ولا شفاعة لكافر، كما قال ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:٤٨]. وقوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ [البقرة:٤٨].

٢. الشفاعة بدون إذن من الله ﷻ للشافع، وعدم رضاه عن المشفوع له. وذلك لقوله ﷻ: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقوله ﷻ: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٨]. وبهذا يظهر لنا أن الله ﷻ هو المسيطر وهو المهيمن يوم القيامة ولا يمكن لأحد أن يشفع لأحد إلا بإذنه ﷻ. وتصديق ذلك قوله ﷻ: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر:١٦].

٣. الشفاعة لمن مات على الكفر واستحق الخلود في النار. قال ابن حزم[٣٤]: "ومن الشفاعات التي أبطلها الله ﷻ هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار، قال ﷻ: ﴿**لَا يُخَفف عَنْهُم من عَذَابهَا وَلَا يقْضِي عَلَيْهِم فيموتوا**﴾ [فاطر:٣٦]"[٣٥].

القسم الثاني: الشفاعة المثبتة: وهي التي توافرت فيها شروط الشفاعة. ومن شروط الشفاعة المثبتة، نذكر شرطان، هما[٣٦]:

---

[٣٤] أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، كان شافعي المذهب ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم، وكان متفننًا في علوم جمعة عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا. وتوفي سنة (٤٥٦هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ج٣، ص٢٩٩.

[٣٥] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ط، د.ت)، ج٤، ص٥٣.

[٣٦] السيد سابق، **العقائد الإسلامية**، ص٢٧٤.

الشرط الأول: إذن الله ﷻ للشافع أن يشفع، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. ومن خلالها يعتقد أن إذن الله ﷻ يسبب شفاعة الشافع.

الشرط الثاني: رضا الله ﷻ عن المشفوع له، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:٢٨]. وأقصد برضا الله ﷻ عن عبده المشفوع له أنه يراه مؤتمرًا لأمره ومنتهيًا عن نهيه. فمن كان كذلك حقت له الشفاعة ونال رضا الله ﷻ.

وزاد إبراهيم بن عبد الله الحازمي شرطين، هما[٣٧]:

الشرط الثالث: قدرة الشافع على الشفاعة، كما قال ﷻ في حق الشافع الذي يطلب منه: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف:٨٦]. ويكون من خلال القوة على الشيء والتمكن منه فإن الشافع ليس له يوم القيامة من قوة على فعل أي شيء، والله ﷻ هو القوي المتين، فإذا أعطى الله ﷻ العبد قدرةً وقوّةً ومكّنه من الشفاعة فإنه يكون شافعًا وإلا فلن يستطيع أن يفعل أي شيء.

الشرط الرابع: إسلام المشفوع له، قال ﷻ: ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر:١٨]. وهذه قضية محسومة أن الشفاعة لن ينالها إلا المسلمون، وعليه، فإن المراد بالظالمين هنا: الكافرون، ويستثنى منهم أبو طالب.

وفي الحقيقة، أن هذين الشرطين الآخرين يدخلان في الشرطين الأولين، فلا يقدر على الشفاعة إلا من أذن له الله ﷻ، ولا يشفع إلا لمسلم.

والشفاعة المثبتة لها أنواع متعددة[٣٨]، وفيما يلي ذكر تلك الأنواع:

١. الشفاعة العظمى، ولا تكون إلا لسيدنا محمد ﷺ، أنه يسأل الله ﷻ أن يقضي بين الخلق، ليستريحوا من هول الموقف، فيستجيب الله ﷻ له، فيغبطه الأولون والآخرون، ويظهر بذلك فضله على العالمين. وهذا هو المقام المحمود الذي وُعد به في قول الله ﷻ: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء:٧٩]. وقد اختلف أهل العلم في معنى المقام المحمود، ولكن الراجح ما ذهب إليه الجمهور كالإمام الطبري[٣٩]، والزمخشري[٤٠]، والرازي[٤١]، والقرطبي[٤٢]، وابن كثير[٤٣]،

---

[٣٧] إبراهيم بن عبد الله الحازمي، **الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة**، ص١٢.

[٣٨] انظر: موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، ص١٢٧.

[٣٩] انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٥، ص٤٣.

والآلوسي[٤٤] على أن المراد به الشفاعة[٤٥]. كما روي عن آدم بن عليّ قال: سمعت ابن عمر ﷺ يقول: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان، اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله ﷻ المقام المحمود»[٤٦]. وعن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم من غير فخر»[٤٧].

وذكر أبو العز الحنفي[٤٨] أن للنبي ﷺ في القيامة ثمان شفاعات[٤٩]:

الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم أن يتراجع الأنبياء: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه. وهذه الشفاعة تسمّى بالشفاعة العظمى التي تختص للنبي ﷺ كما ذكرت.

الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة. وهذه الشفاعة خاصة له أيضًا. فيؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»[٥٠].

الشفاعة الثالثة: شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع «بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير

---

[٤٠] انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص٥٤٣.

[٤١] انظر: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢١، ص٣٢.

[٤٢] انظر: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٣، ص١٤٧.

[٤٣] انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، ج٥، ص١٠٣.

[٤٤] انظر: محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، (بيروت: إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت)، ج٥، ص١٤٠.

[٤٥] انظر: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، حقق أصلها: عبد العزيز بن باز، ورقمها: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٩م)، ج١١، ص٥٢٠-٥٢١.

[٤٦] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب تفسير القرآن، باب عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا، رقم الحديث: ٤٧١٨.

[٤٧] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٦١٣. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن**.

[٤٨] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي، نسبة إلى طحا، قرية من قرى الصعيد بمصر، من أشهر مصنفاته: العقيدة الطحاوية. ولد سنة (٢٣٩هـ)، وتوفي سنة (٣٢١هـ). انظر: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص٥٥.

[٤٩] المرجع نفسه، ص٢٨٣.

[٥٠] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم الحديث: ٥٠٤.

حساب»[٥١]. وعن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين»[٥٢].

الشفاعة الرابعة: شفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصةً، وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث فيها.

الشفاعة الخامسة: شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة. ودليلها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ﷻ، والظالم نفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ»[٥٣].

الشفاعة السادسة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ﷺ ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها. ويخرج الله ﷻ من النار أقوامًا بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله ﷻ لها أقوامًا فيدخلهم الجنة.

الشفاعة السابعة: شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب أن يُخَفَّف عنه عذابه، ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: "فإن قيل: فقد قال الله ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:٤٨]. قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار كعصاة الموحِّدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة"[٥٤]. وأما شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب، فهذه خاصة بهما، بأن يوضَع أبو طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وإنه لأهون أهل النار عذابًا، ودل على هذه الخصوصية قول النبي ﷺ: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[٥٥].

الشفاعة الثامنة: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجوا منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلًا منهم بصحة الأحاديث، وعنادًا

---

[٥١] انظر: المرجع نفسه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم الحديث: ٥٤٦.

[٥٢] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٥٦٦.

[٥٣] أخرجه الإمام الطبراني في الكبير، انظر: **المعجم الكبير**، باب العين، رقم الحديث: ١١٤٥٤.

[٥٤] محمد بن أحمد القرطبي، **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة دار المنهاج، ط١، ١٤٢٥هـ)، ج١، ص٦٠٨.

[٥٥] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، باب كنية المشرك، رقم الحديث: ٦٢٠٨.

ممن علم ذلك، واستمر على بدعته. ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٥٦].

٢. شفاعة الملائكة والأنبياء والصديقين والعلماء والشهداء والصالحين[٥٧]. فشفاعة الملائكة، فهي ثابتة بقوله ﷻ: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم:٢٦]. والملائكة ضمن هذا السياق لا يشفعون إلا لمن أذن الله ﷻ له ورضي عنه وشهد بالتوحيد عن علم وهدى. وأما شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء، فهي ثابتة بعموم القرآن، وخصوص السنة، كما قال الله ﷻ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقال النبي ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[٥٨]. فهي أيضًا تكون لعصاة المؤمنين، وكذلك لن تتحق إلا بإذنه ﷻ، لأنه يقينًا لا ولي لأحد إلا الله ﷻ.

٣. شفاعة الأعمال الصالحات، كشفاعة القرآن، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه على النار»[٥٩]. وكشفاعة الصيام والقرآن، لما جاء في الحديث الصحيح: عن عبد الله بن عمرو ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: رب إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فيشفعان»[٦٠].

٤. وأعظم هذه الشفاعات هي شفاعة رب العالمين. فيقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضم من النار، فيخرج أقوامًا قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، وقد رأيتموها إلى جانب الصخرة، فما كان إلى الشمس منها، كان أحضر. وما كان إلى جانب الظل منها، كان أبيض. فيخرجون

---

[٥٦] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في الشفاعة رقم الحديث: ٢٤٣٥. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه**.

[٥٧] موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، ص١٢٨.

[٥٨] أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، انظر: **سنن ابن ماجه**، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم الحديث: ٤٣١٣.

[٥٩] أخرجه الإمام الطبراني في الكبير، انظر: **المعجم الكبير**، باب العين، رقم الحديث: ١٠٤٥٠.

[٦٠] أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: **المستدرك على الصحيحين**، كتاب فضائل القرآن، باب أخبار في فضائل القرآن جملةً، رقم الحديث: ٢٠٣٦.

كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه»[٦١].

فتلك أنواع الشفاعة التي أثبتها أهل السنة والجماعة، وعليه، فلا يجوز لأحد أن يترك العمل الصالح من أجل نيل الشفاعة.

ثالثًا: آراء المتكلمين عن الشفاعة وحِكمتها

آراء المتكلمين[٦٢] عن الشفاعة

تكاد تتفق آراء علماء أهل السنة والجماعة والمعتزلة في الشفاعة يوم القيامة، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر آراء العلماء التالية أسماؤهم:

١. بعض أقوال علماء أهل السنة والجماعة

يكاد يتفق علماء أهل السنة والجماعة على الشفاعة لأنبياء الله ﷻ حق، لا مراء فيه يوم القيامة. وذلك لكل من عصى وارتكب كبيرة من الكبائر، وعلى كل نبدأ بعض الآراء على الشكل التالي:

يقول الإمام أبو حنيفة[٦٣]: "شفاعة الأنبياء عليهم السلام حق، وشفاعة نبينا ﷺ للمؤمنين المذنبين، ولأهل الكبائر منهم المستوجبين للعقاب حق ثابت"[٦٤].

يقول أبو الحسن الأشعري[٦٥]: "وقال أهل السنة والاستقامة بشفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته...وأيضًا: "أن الله ﷻ يخرج أهل القبلة الموحِّدين من النار ولا يخلدهم فيها"[٦٦]. ويقول في موضع آخر: "إن الله ﷻ يخرج قومًا من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة رسول الله ﷺ تصديقًا لما

---

[٦١] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٣] رقم الحديث: ٧٤٣٩.

[٦٢] هم الطوائف الذين ارتضوا علم الكلام وقواعده الفلسفية منهجًا في الاستدلال على مسائل الاعتقاد. انظر: جابر إدريس علي أمير، **منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة**، (الرياض: مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٤٩.

[٦٣] النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد سنة (٨٠هـ)، وتوفية سنة (١٥٠هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٨، ص٣٦.

[٦٤] انظر: الملاّ علي القاري الحنفي، **شرح كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص١٣٨.

[٦٥] علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. ولد في البصرة سنة (٢٦٠هـ)، وتوفي ببغداد سنة (٣٢٤هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص٢٦٣.

[٦٦] أبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م) ج٢، ص١١٦.

جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ"[٦٧]. وذكر أبو الحسن الأشعري إجماع أهل السنة والجماعة على شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يشفع عند الله ﷻ فيخرج قوم من أمته من النار بعدما صاروا حممًا[٦٨].

يقول ابن قدامة المقدسي[٦٩]: "ويشفع نبينا محمد ﷺ فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحمًا وحممًا فيدخلون الجنة بشفاعته ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات قال ﷻ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٨]، أي ولا تنفع الكافرَ شفاعة الشافعين"[٧٠].

يقول القرطبي[٧١]: "مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحِّدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين"[٧٢].

يقول ابن تيمية: "وأما الشفاعة يوم القيامة، فمذهب أهل السنة والجماعة، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم أن له شفاعات يوم القيامة خاصةً وعامةً، وأنه يُشفَّعُ فيمن يأذن الله ﷻ له أن يُشفَّعَ فيه من أمته من أهل الكبائر. ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون؛ دُون أهل الشرك ولو كان المشرك مُحِبًّا له مُعَظِّمًا له لم تنقذه شفاعته من النار وإنما يُنجيه من النار التوحيد والإيمان به"[٧٣].

ويقول أيضًا: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال

---

[٦٧] انظر: أبو الحسن الأشعري، **الإبانة في أصول الديانة**، تحقيق: فوقية حسين محمود، (القاهرة: دار الأنصار، ط١، ١٣٩٧هـ) ج١، ص٢٠.

[٦٨] انظر: عبد الله بن موسى بن بلال، **رسالة إلى أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري**، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، (دمشق: مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٩٨٨م) ص٢٨٨.

[٦٩] أبو محمد، عبد الله بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، ولد سنة (٥٤١هـ). موفق الدين، فقيه، من أكابر الحنابلة، وتوفي الإمام سنة (٦٢٠هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص٦٧.

[٧٠] محمد الصالح العثيمين، **جامع شروح لمعة الاعتقاد لإبن قدامة المقدسي**، ص٢٥٦.

[٧١] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله ﷻ الصالحين، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله ﷻ وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن والتذكرة وغيرها، توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ج٥، ص١٤٥.

[٧٢] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٧٧.

[٧٣] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، المحقق: أنور الباز وعامر الجزار، (د.م: دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ج١، ص١٥٣.

ذرة من إيمان"[٧٤]. ويقول في موضع آخر: "ومذهب الصحابة والتابعين...أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد؛ بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال ذرة من إيمان"[٧٥].

يقول عضد الدين الإيجي[٧٦]: "أجمعت الأمة على أصل الشفاعة وهي عندنا يقصد أهل السنة لأهل الكبائر من الأمة لقوله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر»[٧٧]، ولقوله ﷻ: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [محمد:١٩]، أي ولذنب المؤمنين لدلالة القرينة وطلب المغفرة شفاعة"[٧٨].

يقول أبو العز الحنفي: "إن أهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة بأنواعها الثمانية، ومنها الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ، ويردون قول المعتزلة المنكرين لها"[٧٩]. ويقول في موضع آخر: "والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر، وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله ﷻ له ويحد له حدًّا"[٨٠].

يقول السفاريني: "وقد اتفق الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان. واتفقوا أيضًا على أن نبينا ﷺ يشفع في من يأذن الله ﷻ له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته"[٨١].

ولو استمررنا في ذكر علماء أهل السنة والجماعة في قضية الشفاعة لأنبياء الله ﷻ لوجدنا اتفاقًا يكاد يصل إلى الإجماع الذي لا يخالف فيه أحد من العلماء المشهورين، فكلهم متفقون تمامًا على أن الشفاعة من الأنبياء حق إلى العصاة وأصحاب الكبائر من أمة محمد ﷺ.

---

[٧٤] المرجع نفسه، ص١١٦.

[٧٥] المرجع نفسه، ص٣١٨.

[٧٦] عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، قاضي قضاة الشرق، كان إمامًا في علوم كثيرة، محققًا مدققًا، له: المواقف والجواهر، وشرح المختصر لابن حاجب، ولد بإيج-بلدة في اقصى بلاد فارس-وإليها نسبته، توفي سنة (٧٥٦هـ). انظر: ابن قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، ج٢، ص١٧١.

[٧٧] أخرجه الإمام الترمذي في سننه. انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في الشفاعة، رقم الحديث: ٢٤٣٥. قال أبو عيسى: **هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه**.

[٧٨] عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، **كتاب المواقف**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٧م)، ج٣، ص٣٨٠.

[٧٩] انظر: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، ج١، ص٢٨٢.

[٨٠] المرجع نفسه، ٢٩٤.

[٨١] محمد بن أحمد السفاريني، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار لشرح الدرة المضية في عقد الرقة المرضية**، ج١، ص٤١٠.

٢. بعض أقوال علماء المعتزلة

إن المعتزلة ينكرون شفاعة النبي ﷺ وغيره فيمن استحق النار من أهل الكبائر، وهؤلاء في زعمهم لا يخرجون من النار بعد دخلوها، ويقصرون الشفاعة على التائبين من المؤمنين دون الفساق من أمة محمد ﷺ وتكون برفع درجاتهم في الجنة[٨٢]، لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد الذي هو أصل من أصول المعتزلة الخمسة التي يقوم عليها مذهبهم.

يقول القاضي عبد الجبار؛ هو أحد كبار مشايخ المعتزلة في بيان رأي المعتزلة في الشفاعة: "لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة، وإنما الخلاف في أنها تثبت لمن؟". ثم قال: "فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين"[٨٣]. ويقول في موضع آخر: "فحصل لك بهذه الجملة العلم بأن الشفاعة ثابتة للمؤمنين دون الفساق من أهل الصلاة"[٨٤]. إضافةً إلى ذلك، فأهل النار عنده يستحقون اللعن والغضب والسخط، فكيف يجوز للرسول ﷺ أن يشفع لهم، ومن حق الشافع أن يكون محبًّا لمن يشفع له راضيًا عنه، وهذا يوجب بإن كان عليه السلام يشفع لهم، أن يكون راضيًا عمن سخط عليه ولعنه، ولذلك لا يصح[٨٥]. فبذلك، أن الشفاعة عنده تنفع لأهل الثواب في زيادة الفضل في الجنة، ولا تنفع للعصاة في إسقاط العقوبة.

وذهب المفسر الزمخشري المعتزلي إلى أن الشفاعة لا تقبل للعصاة من أمة محمد ﷺ. وذلك في تفسيره لقول ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ [البقرة:٤٨] ثم أتى بكلام في حد الشفاعة وأنها للمطيعين لا للعاصين[٨٦]. ويمكن القول إذا كانت الشفاعة للمؤمنين الطائعين الذين وعدهم الله ﷻ بالجنة فقط فما معناها في هذا السياق، إذ أنه ﷻ لا يخلف وعده لمن آمن به، وبالتالي، لابدّ عقلًا أن تكون الشفاعة لأصحاب الكبائر والذنوب من أمة محمد ﷺ وكل من استحق عقوبة حتى ترفع عنه تلك العقوبة، أما الطائع المؤمن الذي لا عقوبة عليه فما جدوى الشفاعة فيه. وتفصيل ذلك سيكون في المباحث التالية إن شاء الله ﷻ ليثبت أن المقصود بالذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين هم الكفار حيث أخبرنا الله ﷻ في كتابه أن الكفار يوم

---

[٨٢] المرجع نفسه، ج٢، ص٢١٢.

[٨٣] انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٨.

[٨٤] المرجع نفسه، ص٦٩٠.

[٨٥] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق: فؤاد سيّد، (تونس: دار التونسية، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٢٠٨.

[٨٦] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٢٦٢.

القيامة وهم في النار يقولون: ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠٢]

الحكمة من الشفاعة

الشفاعة لها حِكَم كثيرة، ومزايا عديدة، فما من شيء أثبته الله ﷻ إلا ويحمل في طياته الخير للإنسانية في آجلها وعاجلها، لأن الله ﷻ هو خالق الكون وما فيه، وهو العليم بمصالحه، والبصير بشوؤنه، والخبير بمجرياته، ولذلك كانت تشريعات القرآن الكريم والسنة النبوية تحمل حكمًا تعود بالنفع للبشر أفرادًا وجماعات، منها ما يمكن للإنسان إدراكه بحسب قدرته العقلية، وفطرته الطبيعية، ومنها ما لا يمكن له إدراكه مع إيمانه التام بأن ذلك الأمر فيه مصلحة لا محالة، ومنفعة عاجلة أم آجلة، دنيوية أم أخروية. وقد تظهر للبعض وتخفى على الآخرين، وقد استظهر أهل الفضل بعض الحِكم من الشفاعة، منها:

١. **إفاضة الكرم الإلهي والرحمة على المشفوع لهم:** لما كان الله ﷻ هو الرحمن الرحيم، الرؤوف، الحنان، الكريم، العفو، الغفور. فمن المؤكد، أنه سيتفضل على عباده بواسع الرحمات والمكرمات، وهذه المكرمات تأخذ أشكالًا مختلفةً، فقسم من الناس رغم أعمالهم الصالحة وإكثارهم من الطاعات، إلا أن الله ﷻ يفيض عليهم من كرمه وفضله برفع درجاتهم أو تحقيق رغباتهم في إخوانهم مثلًا، فيشفعون لهم بفضل من الله ﷻ وغيرها من الأقسام الكثيرة المختلفة، ومنها أن يشفع الشافع في المشفوع فيرحمهم جميعًا.

٢. **إكرام الشافع:** إن الله ﷻ إذا أراد أن يأذن لفلان بالشفاعة ناداه على رؤوس الخلائق وأذن له أمام العالمين أن يشفع لمن يشاء، أليس هذا إكرامًا؟ بلى، وأي إكرام أعظم من ذلك؟ وهذا الشافع ما هي منزلته في قلوب تلك الحشود؟ ما مقدار الافتخار الذي سيحل بأهله وأخواته ومن شفع لهم؟ فهو صاحب مكانة خاصة وعظيمة عند الله ﷻ.

٣. **حث المسلم على العمل الصالح في حياة الدنيا:** إن الخالق العظيم أعلم بمخلوقاته حتى من أنفسهم، فهو يعلم ما يصلحهم وما يفسدهم، وما يدفعهم إلى العمل، وما يبطئهم، ولما كان هذا الإنسان المسلم يعلم أن هناك ثوابًا وعقابًا في زمن معلوم وفي مكان معلوم، فإنه بالتأكيد سوف يندفع إلى العمل الصالح وينتهي عن المنكرات. فلما كان ذلك الثواب والعقاب من أهمّ مضمونات العقيدة الإسلامية، فإن المسلم العاقل سيبادر إلى الطاعة والعمل

الصالح ويتجنب المعاصي والآثام بطبيعة الحال. لذا، فإن الشفاعة تدفع المسلم إلى العمل الصالح وفعل الطاعات[٨٧].

[٨٧] عبد القادر مصطفى عبد الرزاق المحمدي، **الشفاعة في الحديث النبوي**، ص٤٢.

الفصل الثاني
الإمام الزمخشري وتفسيره الكشاف

أولًا: ترجمة الإمام الزمخشري

من الصعب أن نستوعب مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره بشكل وافٍ إلا بعد التعرف على العوامل التي أثرت على شخصيته ومنهجه في التفسير، وذلك خلال مراحل سنه المختلفة ابتداءً من عائلته التي نشأ فيها، ثم جماعة الناس الكبيرة التي تفاعلت معه طوال مراحل حياته. وعلى هذا سيتم الحديث بإذن الله ﷻ من خلال هذا المبحث عن ترجمة الإمام الزمخشري.

لمحة موجزة عن عصره

١. الناحية السياسية

عاش الإمام الزمخشري في الفترة الزمنية الواقعة ما بين عامَي (٤٦٧-٥٣٨هـ). وكانت هذه المدّة حافلة بالأحداث والتطورات السياسية، فقد شهد تقسيم العالم الإسلامي إلى العديد من الممالك والإمارات، وعاصر بعض الملوك المشهورين في تاريخ الإسلام[١]. وشاهد آثار الحياة السياسية العاصفة وتأثيراتها في شتى الجوانب من ثقافة واجتماع وآداب، واقتصاد.

ومن الدول التي عاصرها الإمام الزمخشري والتي قامت في أرجاء العالم الإسلامي:

١. الخلافة العباسية، وقد كانت في عهد ضعف سياسي ظاهر.
٢. الدولة الغزنوية في بلاد الهند والسند.
٣. الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر والشام.
٤. دولة الأشراف الحسنيين في مكة.

أما بالنسبة لخوارزم[٢] (البلد الذي نشأ الإمام الزمخشري فيه) وبلاد ما وراء النهر، فقد خضعت تلك البلاد للحكم العربي مدة ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة:

---

[١] من الملوك المشهورين الذين اتصل بهم الإمام الزمخشري: أبو الفتح ملكشاه السلجوقي (٤٦٥-٤٨٥هـ)، وابنه محمد (ت.٥١١هـ)، ومن الأمراء صاحب دمشق تاج الملك (ت.٥٢٦هـ)، وابنه شمس الملك، والأمير على بن عيسى بن وهاس الشريف الحسيني (ت.٥٢٦هـ)، وغيرهم. انظر: مرتضى آية الله، **الزمخشري لغويًا ومفسرًا**، تقديم: حسين نصار، (القاهرة: دار الثقافة، د.ط، ١٩٧٧م)، ص٢٣.

[٢] هي منطقة تاريخية تقع على ضفاف نهر جيحون في أراضي جمهوريتي وأوزبكستان الاستراكيتين، خضعت لحكم الإخيمينيين، فتحها المسلمون على يد قتيبة بن مسلم عام (٨٦-٩٣هـ). وفيما بين (٤٩٠-٦٢٨هـ) حكمتها

الدولة الأولى: الدولة السامنية[٣] من سنة (٢٦١-٣٨٩هـ). وكانوا في فترتهم الذهبية أصحاب النفوذ والسلطان بالمشرق كله، ثم قضى الغزنويون على دولتهم سنة (٣٨٩هـ).

الدولة الثانية: الدولة السلجوقية[٤] وحكمت من سنة (٤٢٩-٥٥٢هـ). وقد خلفوا آل بويه في الاستيلاء على النفوذ والسلطان والملك في دولة الخلافة العباسية في هذه الفترة وحكموا رقعة واسعة من العالم الإسلامي، كان من ضمنها خوارزم التي استولوا عليها عام (٤٣٤هـ)، وقد كان الخلفاء من بنى العباس مع هذه الدولة أحسن حالًا منهم مع بني بويه، لكون السلاجقة سنيين يحترمون الخلفاء ويعظمونهم تدينًا بعكس آل بويه فقد كانوا من غلاة الرافضة الذين يكنون لأهل السنة العداء المستحكم.

الدولة الثالثة: الدولة الخوارزمية[٥]، وقد كانت في بدايتها إمارة في خوارزم، ثم جعلت تتقوى وتتوسع على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق فلما سقط السلاجقة، خلفهم الخوارزميون وضموا تحت لوائهم الأقاليم التي كان يحكمها السلاجقة وكان من ضمنها بلاد العراق العجمي، وقد حكموه من قبل الخليفة العباسي وطلبوا من الخليفة بأن يحل اسمهم في خطبة الجمعة محل أسلافهم السلاجقة[٦]. وامتد حكم هذه الدولة من سنة (٤٩١هـ) إلى أن قضى عليها المغول سنة (٦٢٨هـ)، وقد عاصر الإمام الزمخشري تأسيس هذه الدولة وأدرك ثلاثة من سلاطينها[٧].

٢. الناحية الاجتماعية

الدولة الخوارزمية، وبعد ذلك خضعت لسلطان المغول التيموريين، استولى عليها الروس وأخضعوها لحمايتهم عام (١٨٧٣م). وبعد الثورة السوفياتية، أنشئت (جمهورية خوارزم الشعبية السوفياتية)، (١٩٢٠-١٩٢٤م). ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ)، ج٢، ص٤٥٢.

[٣] نسبة إلى سامان (خداة بن جثمان) جد الملوك السامنية ينحدر من أسرة فارسية وقد اعتنق الإسلام. انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، حققه: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت)، ج١، ص١٧٤.

[٤] نسبة إلى سلجوق بن دقاق مقدم عشائر الغز التركمانية الذي سار بقبيلته من بادية القرغيز إلى بحر خوارزم ثم إلى بخارى. ومؤسسها الحقيقي هو طغرلبك الذي أطاح بالدولة البوبهية. انظر: على بن محمد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت)، ج٩، ص٤٧٣.

[٥] نسبة إلى مدينة خوارزم التي نشأت فيها، وضع نواتها الأول أنوشتكين (٤٧٠-٤٩٠هـ)، والمؤسس الحقيقي لها ابنه محمد (٤٨٧-٤٩٤هـ). انظر: أحمد محمد الحوفي، **الزمخشري**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٨٠م)، ص١٢.

[٦] انظر: على بن محمد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ج١٢، ص١٠٨.

[٧] انظر: أحمد محمد الحوفي، **الزمخشري**، ص١٤.

في عصر الإمام الزمخشري كان النزاع على أشده بين العنصر التركي والعنصر الفارسي، فقد كان النفوذ للفرس في عهد سيطرة آل بويه على مقاليد الحكم في عاصمة الخلافة وما جاورها، ثم خلفت دولتهم دولة السلاجقة التركية فانتقل النفوذ والسلطان إلى الأتراك، وقد قضوا بذلك على نفوذ الفرس والعرب في دولة الخلافة العباسية[٨].

ومن الأمور التي كانت ظاهرة في ذلك العصر، كثرة النزاع بين أهل السنة والشيعة، فقد كان البويهون رافضة، وكان الغزنويون والسلاجقة والخوارزمية سنيين[٩].

كما كثر الخلاف حول الاعتزال والمسائل الكلامية فقد كانت خوارزم مرتعًا خصبًا للاعتزال، ثم ذاع الاعتزال واستقر في الشرق حتى لقد كان أكثر الشيعة في بلاد العجم معتزلة، وأكثر فقهائهم على الاعتزال، وكثيرًا ما كانت المشاحنات تقع بين العامة بسبب ذلك[١٠].

ومع ازدهار خوارزم ومكانتها المدنية والرقى، فقد كانت الطبقة السفلى من الشعب والعامة في فقر وبؤس، ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة، وترف وفقر، ونسك ولهو، كانت البلاد معرضًا للنحل، ومجالًا لدعايات الجماعات السرية وأصحاب المذاهب، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية، وكان من نتائج ذلك، انتشار نزعة التصوف والتواكل، وانتشار السحر والطلسمات، والالتجاء إلى دعوات الأولياء[١١].

أما نظام الدولة المالي في ذلك الحين، فقد كان سيئًا للغاية فنفقات السلاطين والأمراء بلغت حدًا لا يطاق، بينما كان العسف بالناس لأخذ الضرائب والمكوس أمرًا منتشرًا وقد كثر الرقيق في هذه الحقبة كثرة بالغة، وكان لذلك أثر كبير في الحياة الاجتماعية، فاختلطت الدماء وانتشر اللهو والمجون في أوساط الناس[١٢].

أما العلماء في ذلك الوقت فقد كانوا منقسمين إلى قسمين: قسم يتصلون بالخلفاء والأمراء ويعملون في مناصب الدولة، وكان هؤلاء ميسورين نسبيًا، ولأجل ذلك كانت أغلب تأليف العلماء في هذا العصر بأمر

---

[٨] انظر: أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٥، ١٣٨٨هـ)، ج١، ص٦٠٥.
[٩] انظر: المرجع نفسه، ج٢، ص٦٠٤.
[١٠] انظر: آدم متز، **الحضارة الإسلامية**، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريده، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٣٨٧هـ)، ج١، ص١٣٦.
[١١] انظر: مرتضى آية الله، **الزمخشري لغويًا ومفسرًا**، ص٣٩.
[١٢] انظر: آدم متز، **الحضارة الإسلامية**، ج١، ص١٣٦.

أمير أو سلطان أو مصدرة بأسمائهم. وأما من كان من العلماء بعيد عن القصور فكانوا فقراء على غالب أحوالهم[١٣].

٣. الناحية العلمية

يُعَدُّ عصر الإمام الزمخشري ثمرة العصور السابقة في ميدان العلم والأدب، فقد نبغ فيه الكثير من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، وخصوصًا في منطقة خوارزم، فقد كانت الثقافة الإسلامية تلقى فيها تشجيعًا كبيرًا من الحكام والسلاطين، وكان لذلك أثر في دفع الحركة العلمية إلى الأمام، حتى إن الناس أصبحوا يتسابقون إلى اقتناء الكتب في جميع فروع المعرفة، وازدادت حركة التأليف، وتغيرت طرائق التدريس، وانتشرت المدارس بدعم من السلاطين والعلماء والموسرين من العامة[١٤]، ومما ساعد على ازدهار النهضة العلمية في تلك البلاد إلى جانب ما ذكر، أن أهل خوارزم كان لهم شغف بالعلم والإقبال على العلماء وخاصة الأئمة منهم، وكانوا أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وآداب[١٥].

لكن خوارزم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال حتى ليندر أن يوجد خوارزمي ليس معتزليًا. وقد جعل الإمام الزمخشري هذا من أعظم فضائلهم[١٦]. وقد فشا فيهم ذلك حتى إن عوامهم كانوا يدينون بأن القرآن مخلوق[١٧]. وقد أنجبت خوارزم عددًا كبيرًا من العلماء وطلاب العلم في شتى فروع المعرفة[١٨].

اسمه، ومولده، ووفاته، ولقبه

هو أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الزمخشري، "جار الله"، كان حنفي المذهب، ومعتزلي العقيدة. ولد بخوارزم سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي بجرجان[١٩] سنة (٥٣٨هـ)[٢٠].

---

[١٣] انظر: المرجع نفسه، ص٣٤٣.

[١٤] انظر: المرجع نفسه، ص٣٣٥.

[١٥] انظر: شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (بيروت: دار صادر، ط٢، ١٩٠٩م)، ص٢٨٤.

[١٦] انظر: أحمد محمد الحوفي، **الزمخشري**، ص٢٥.

[١٧] انظر: شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٣٩٥.

[١٨] انظر: أحمد محمد الحوفي، **الزمخشري**، ص١٦.

[١٩] قصبة خوارزم، مدينة عظيمة إلى الجنوب من جبال القوقاز، وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج، فعربت إلى الجرجانية فتحها المسلمون في القرن الثالث الهجري، ومن ثم غزاها المغول، والأتراك والفرس، وضمتها روسيًا إلى أراضيها عام (١٨٠١م) وأعلنت جمهورية مستقلة عام (١٩١٨م). انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٤٢.

[٢٠] منيع عبد الحليم محمود، **مناهج المفسرين**، ج١، ص١٠٥.

لقب بالخوارزمي لأنه ولد في منطقة خوارزم في خراسان[٢١]، ولقب بالزمخشري لأنه ولد في قرية زمخشر في إقليم خوارزم[٢٢]. ولقب بجار الله لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زمنًا حتى عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه[٢٣].

حياته ونشأته، ورحلاته العلمية

نشأ في زمخشر وسط أبوين صالحين، وتلقى العلم على أبيه عمر أولًا، وحفظ عليه القرآن، وقرأ العلوم على كبار علماء عصره، في خوارزم وبخارى وغير ذلك[٢٤].

وقطعت رجله وهو في سن الصبا، قيل: بسبب الثلج والبرد، وقيل: بسبب جرح أصابه، وقيل: إنه سقط عن الدابة فقطعت رجله، وقيل: كان ذلك بسبب دعاء والدته[٢٥].

روى ابن خلكان[٢٦] عن ابن القفطي أنه لما دخل الإمام الزمخشري بغداد، واجتمع بالفقيه الدامغاني الحنفي، سأله عن سبب قطع رجله؟ فقال: "دعاء الوالدة، وذلك أني في صباي أمسكت عصفورًا، وربطته بخيط في رجله، وأفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته، فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي لذلك، وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب، رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة، فانكسرت رجلي، وعملت عليّ عملًا أوجب قطعها"[٢٧].

---

[٢١] مقاطعة في الجزء الشمالي الشرقي من إيران، يحدها الاتحاد السوفياتي شمالًا، وأفغانستان شرقًا، خضعت لحكم الأخيمينيين، وحكم الساسنيين. فتحها المسلمون عام (٣١هـ) واجتاحها جنكيزخان عام (٦١٧هـ)، وتيمور لنك حوالى عام (٧٣٨هـ) عاصمتها مشهد. انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٤٠١.

[٢٢] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، (دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص٥٣٢.

[٢٣] محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، (القاهرة: دار الحديث، د.ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٣٦٢.

[٢٤] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص٥٣٢.

[٢٥] المرجع نفسه.

[٢٦] قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس البرمكي الإربلي الشافعي، ولد بإربل سنة (٦٠٨هـ)، وسمع بها "صحيح البخاري" من أبي محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي، وأجاز له المؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وزينب الشعرية. روى عنه المزي والبرزالي والطبقة، وكان فاضلًا بارعًا متفننًا عارفًا بالمذهب حسن الفتاوي جيد القريحة بصيرًا بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة وافر الحرمة، فيه رياسة كبيرة، له كتاب "وفيات الأعيان" وقد اشتهر كثيرًا وله مجاميع أدبية. انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج٥، ص٣٧٠.

[٢٧] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص٥٣٣.

ونشأ الإمام الزمخشري في أسرة فقيرة، فأبوه يدفع به إلى خياط ليعلمه الخياطة، ولكن الإمام الزمخشري له رغبة في طلب العلم. فيستعطف أباه، قائلًا له: "احملني إلى البلد واتركني بها"[٢٨].

ورحل الإمام الزمخشري إلى بخارى[٢٩] في طلب العلم، وزار مدينة مرو ولقي بها الإمام السمعاني (ت.٥٦٢هـ)، وتنقل بين خوارز وخراسان، محصلًا للعلم، فحصل أصول الفقه والحديث والتفسير والكلام وعلوم العربية[٣٠]. وصار عالماً معروفًا بخوارزم وخراسان، وهو في ثلاثين من عمره، واشتهر بعلمه في التفسير والنحو والعقيدة والأدب[٣١].

وفي مطلع القرن السادس رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج، وجاور ببيت الله الحرام، واجتمع بشريف مكة وأميرها عليّ بن حمزة ابن وهاس، وهو من آل البيت وعلى مذهب المعتزلة، فأكرمه غاية الإكرام، وألف عند الحرم معظم كتبه، ومنها تفسير الكشاف، وتجول في كل أنحاء جزيرة العرب من اليمن وعُمان ونجد وغيرها، واستمرت مجاوزته بالحرام سنوات عديدة، ثم زار خوارزم وأقام بها فترة قصيرة، وعاد وجاور في الحرم سنوات أخرى، ثم غادرها عائدًا إلى خوارزم، وتوفي فيها بعد أن جاوز السبعين عامًا[٣٢].

شيوخه

أخذ الإمام الزمخشري العلوم عن عدد من العلماء، ومن أشهرهم:

١. أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر البغدادي، البزاز القارىء، مسند العراق، أخذ عنه الإمام الزمخشري، وحدث عنه وطال عمره، ورحل إليه من الآفاق، وكان صحيح السماع، ولد سنة (٣٩٨هـ)، ومات سنة (٤٩٤هـ)، وله ست وتسعون سنة[٣٣].

٢. أبو السعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، يقال له الحاكم الجشمي، مفسر عالم بالأصول والكلام، وكان معتزليًا زيديًا، وهو

---

[٢٨] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٣.

[٢٩] مدينة في الجزء الغربي من جمهورية أوزبكستان السوفياتية، يرقى تاريخها إلى القرن الأول للميلاد، فتحها المسلمون عام (٩٠هـ)، ازدهرت في القرنين الثالث والرابع الهجرين بوصفها عاصمة للدولة السامانية. انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص٤١٩.

[٣٠] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٣.

[٣١] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص٥٣٣.

[٣٢] المرجع نفسه.

[٣٣] انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، حققه وأخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٤١٢هـ) ج١٩، ص٤٦.

شيخ الإمام الزمخشري في التفسير، ولد عام (٤١٣هـ)، وتوفي بمكة عام (٤٩٤هـ)[٣٤].

٣. أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني، وكان يلقب بفريد عصره، وكان وحيد دهره في علم اللغة والنحو والطب، وقد درس عليه الإمام الزمخشري النحو والأدب، وكان أعظم أساتذته أثرًا في نفسه، وعنه أخذ مذهب الاعتزال، وتوفي سنة (٥٠٧هـ)[٣٥].

٤. عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله اليابري، نحوي أصولي فقيه، وقرأ عليه الإمام الزمخشري بمكة كتاب سبويه، وقد رحل إليه لهذا الغرض قبل عام (٥٢٠هـ)[٣٦].

٥. أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الجواليقي، إمام الخليفة المقتفي، كان من المحامين عن السنة، وقد قرأ عليه الإمام الزمخشري بعض كتب اللغة من فواتحها واستجازه فيها، ولد سنة (٤٦٦هـ)، وتوفي سنة (٥٤٠هـ)[٣٧].

٦. الشيخ السديد الخياطي، أخذ عنه الفقه[٣٨].

٧. ركن الدين بن محمد الأصولي، أخذ عنه علم الأصول وأخذ هو عن الإمام الزمخشري التفسير[٣٩]. وغيرهم كثير من العلماء تتلمذ على أيديهم الإمام الزمخشري[٤٠].

تلاميذه

تتلمذ على يد الإمام الزمخشري عدد من الطلاب والأصحاب، منهم من أخذ عنه العلم مشافهة، ومنهم من أخذ عن العلم بطريق الإجازة، ومن هؤلاء الطلاب:

١. علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس أبي الطيب العلوي، وكان شريفًا جليلًا همامًا، من أهل مكة وشرفائها وأمرائها، وكان ذا فضل غزير،

---

[٣٤] انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص٢٨٩.

[٣٥] انظر: جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: مطبعة البابى الحلبي، ط١، ١٣٨٤هـ)، ج٢، ص٢٧٦.

[٣٦] انظر: جلال الدين السيوطي، **طبقات المفسرين**، تحقيق: على بن عمر، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٣٩٦هـ)، ص٤١.

[٣٧] انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص٣٤٢.

[٣٨] انظر: أحمد بن مصطفى الشهير، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، تحقيق: كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، (مصر: دار الكتب الحديثة، د.ط، د.ت)، ج٢، ص١٠٠.

[٣٩] انظر: المرجع نفسه.

[٤٠] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٤.

له تصانيف مفيدة، وقريحة في النظم والنشر مجيدة. قرأ على الإمام الزمخشري بمكة وبرز عليه، وتوفي بمكة سنة نيف (٥٥٠هـ)[٤١].

٢. علي بن محمد بن على بن أحمد بن مروان، أبو الحسن العمراني الخوارزمي، الملقب بحجة الأفاضيل وفخر المشايخ. كان من علماء المعتزلة، قرأ الأدب على الإمام الزمخشري، فصار أكبر أصحابه، وأوفرهم حظًا من غرائب أدبه، وتوفي سنة (٥٦٠هـ)[٤٢].

٣. محمد بن أبي القاسم بايجوك، أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي، الملقب بزين المشايخ. كان إمامًا في الأدب، وحجة في لسان العرب، مفسر فقيه حنبلي، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن الإمام الزمخشري، وجلس بعده مكانه، ولد سنة (٤٩٠هـ)، وتوفي سنة (٥٦٢هـ)[٤٣].

٤. الإمام أبو بكر يحي بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي المقريّ النحويّ، الملقب بصائن الدين، ولد سنة (٤٨٦هـ) بمدينة قرطبة، واستوطن الموصل، ورحل منها إلى أصبهان وخوارزم، وهناك أخذ عن الإمام الزمخشري ثم عاد إلى الموصل، وأقام بها إلى أن مات سنة (٥٦٧هـ). كان ثقة متقنًا بارعًا في العربية دينًا خيرًا[٤٤].

٥. الموفق بن أحمد بن محمد بن أبي سعيد إسحاق، أبو المؤيد، المكي المعروف بأخطب خوارزم. كان فقيهًا أديبًا، له خطب وشعر، أصله من مكة، أخذ العربية عن الإمام الزمخشري بخوارزم، وتولى الخطابة بجامعها، ولد عام (٤٨٤هـ)، وتوفي عام (٥٦٨هـ)[٤٥].

٦. يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر، أبو يوسف البلخي، ثم الجندلي، أحد الأئمة في النحو والأدب، أخذ عن الإمام الزمخشري ولزمه[٤٦].
ولزمه[٤٦].

٧. القاضي أبو المعالي يحي بن عبد الرحمن بن على الشيباني، قاضي مكة، وروى عن الإمام الزمخشري كتاب الكشاف بالحرم الشريف[٤٧]. والملاحظ أن طلبة العلم لدى الإمام الزمخشري عددهم كبير جدًا جدًا يصعب حصرهم. وكان يغلب عليهم طابع الوفاء للفكر الاعتزالي.

---

[٤١] انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ)، ج٤، ص١٩٧.
[٤٢] انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص٣٢٩.
[٤٣] انظر: المرجع نفسه، ج٦، ص٢٣٥.
[٤٤] انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، ج٥، ص٦٢٢.
[٤٥] انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص٣٧١.
[٤٦] انظر: جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج٢، ص٣٥١.
[٤٧] انظر: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: فؤاد سيد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ)، ج٧، ص١٣٨.

وقد أجاز الإمام الزمخشري لكثير من طلبة العلم في عصره، والذين صاروا أئمة أعلام، منهم: زينب بنت عبد الرحمن الجرجاني[٤٨]، أبو طاهر[٤٩]، والأديب الوطواط[٥٠].

مذهبه وعقيدته

كان الإمام الزمخشري حنفي المذهب في الفروع، ومعتزلي في الأصول، غير متعصب لمذهبه الحنفي[٥١]. وهو واحد من رؤوس المعتزلة ودعاتها الأقوياء، وكان يؤوّل الآيات وفقَ مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة، ويسمّى المعتزلة إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية[٥٢]. وقد عاش في بيئة تموج بالاعتزال والمعتزلة، وكان لشيخه أبو مضر الضبي، أثر في ترسيخ هذا المذهب لديه، وقد كان شيخه هذا من أئمة المعتزلة وهو أول من أدخل الاعتزال على أهل خوارزم[٥٣]. كما كان لشيخه أبو السعد الجشمي، وهو شيخه في التفسير أثر كبير أيضًا في ترسيخ المذهب لديه، ولأجل هذا، نقل الإمام الزمخشري الكثير من آراء المعتزلة في كشافه[٥٤].

وقد نشأ الإمام الزمخشري متحمسًا للاعتزال مذيعًا لتعاليمه، حتى إنه يروى عنه أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول: لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب[٥٥].

مؤلفاته

---

[٤٨] زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجاني الشعريي، أم المؤيد، فقيهة، لها اشتغال بالحديث، أخذت عن جماعة من العلماء رواية وإجازة، منهم: أبو القاسم الإمام الزمخشري، ولدت سنة (٥٢٤هـ)، وتوفيت سنة (٦١٥هـ). انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٣٤٤.

[٤٩] الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الخشوعي، أحد الحفاظ المكثرين، وكان شافعي المذهب لم يكن في آخر عصره مثله، كتب إلى الإمام الزمخشري من الإسكندرية. والإمام الزمخشري يومئذ مجاور بمكة، يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فرد عليه بما لا يشفى الغليل، وتوفي بالإسكندرية سنة (٥٧٦هـ). انظر: المرجع نفسه، ج١، ص١٠٥.

[٥٠] محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك البلخي، رشيد الدين المعروف بالوطواط. الأديب، الكاتب، الشاعر، كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، وقد كتب إلى الإمام الزمخشري رسالة يستجيزه فيها، ومات بخوارزم سنة (٥٧٣هـ). انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، ج٥، ص٤٣٠.

[٥١] انظر: محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، (القاهرة: دار الحديث، د.ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ج١، ص٤٧٤.

[٥٢] مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص٣٨٩. وانظر: محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، ص٥٧٣.

[٥٣] انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، ج٥، ص٤٨٧.

[٥٤] انظر: الشيرازي، **الزمخشري لغويًا ومفسرًا**، ص١٥٧.

[٥٥] انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص١٧٠.

ترك الإمام الزمخشري تراثًا هائلًا من التصانيف في مختلف فنون العلم، ونذكر منها ما يلي[٥٦]:

١. مؤلفاته في اللغة والأدب

- أساس البلاغة (معجم يهتم بالمجاز ولاستعارة).
- أعجب العجائب في شرح لامية العرب.
- الأمالي في كل فن.
- الأمكنة والجبال والمياه والبقاع المشهورة في أشعار العرب.
- الأنموذج (مختصر من المفصل في النحو).
- تعليم المبتدي وإرشاد المهتدي (جمل في العربية وترجمتها بالفارسية للناشئين).
- جواهر اللغة.
- ديوان الزمخشري.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم).
- شرح أبيات كتاب سبويه.
- شرح بعض مسكلات المفصل.
- شرح مقامات الزمخشري (النصائح الكبار).
- صميم العربية.
- القسطاس.
- القصيدة البعوضية.
- المحاجة في الأحاجي والأغلوطات.
- المستقصى في أمثال العرب.
- المفرد والمركب (أو المؤلف).
- المفصل في تعليم النحو.
- مقامات الزمخشري.
- مقدمة الأدب (معجم عربي فارسي).
- نوابع الكلم (حكم وأقوال).

٢. مؤلفاته في الفقه وأصول الفقه

- رؤوس المسائل (في الخلاف الفقهي بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي).

[٥٦] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٥.

- شافي العي من كلام الشافعي.
- شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة).
- المنهاج (في أصول الفقه).
- ضالة الناشد في علم الفرائض.

٣. مؤلفاته في العقيدة والعلوم الإسلامية

- أطواق الذهب، أو النصائح الصغار (في الوعظ والرقائق).
- خصائص العشرة الكرام البررة.
- الرسالة الناصحة.
- مسألة في حكمة الشهادة.
- نزهة المستأنس.
- النصائح الضغار والبوالغ الكبار.

٤. مؤلفاته في القرآن والتفسير

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
- الكشف في القراءات.
- نكت الأعراب في غريب الإعراب.

٥. مؤلفاته في السيرة والحديث

- تسلية الضرير.
- ديوان التمثيل.
- ديوان الرسائل.
- سوائر الأمثال.
- الفائق (في غريب الحديث).
- متشابه أسامي الرواة.
- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.
- معجم الحدود.

ومن مؤلفاته الكثيرة المذكورة فيها حوالي ٢٢ كتابًا عن علم اللغة والأدب كالبلاغة والنحو. فهذا دليل على أن الإمام الزمخشري عالم موسوعي بل علَّامة يتحدث في كل فن وعلم في علوم اللغة والفقه والأصول والعقيدة والتفسير والحديث أو دونها من العلوم التي أعطاها الله ﷻ إياه.

ثانيًا: التعريف بتفسير الكشاف

اسم الكتاب وسبب التسمية

اسمه المعروف: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. وأما سبب التسمية به، فالإمام الزمخشري لا يريد من كشافه أن يكشف عن المعاني الظاهرة، وإنما المعاني البعيدة والحقائق الغامضة. وهو بكشافه يريد أن يذكر عيون الأقاويل، ويختار أفضل وأنفس تلك الأقوال المتعلقة بوجوه تأويل القرآن[٥٧].

وفي هذا التفسير يكشف لنا الإمام الزمخشري عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الألمام بلغة العرب والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب[٥٨].

ويعتبر الكشاف من أكبر كتب المعتزلة التفسيرية الموجودة، ورائدًا في ذلك الاتجاه، وخلاصة دقيقة لأهمّ تفاسير المعتزلة[٥٩]. فإن تفاسير المعتزلة الأخرى لم تصل إلينا، ولكن قسمًا من أقوال هذه التفاسير موجود في بطون الكتب الأخرى، ومن هذا التفاسير: تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم (ت.٢٣٥هـ)، وقاسم بن إبراهيم الرسي (ت.٢٤٧هـ)، وأبي عليّ محمد بن عبد الوهاب الجبائي (ت.٣٠٣هـ)، ومحمد بن بحر أبي مسلم الأصفهاني (ت.٣٠٧هـ)، وأبي القاسم عبد الله بن أحمد البلخي الكعبي (ت.٣١٩هـ)، وعليّ بن عيسى أبي الحسن الرماني (ت.٣٨٤هـ)، والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت.٤١٥هـ)، وأبي يوسف القزويني (ت.٤٨٣هـ)، ومحمد بن محسن الحاكم الجشمي (ت.٤٩٤هـ)، وغيرها من التفاسير الأخرى[٦٠].

وأما تفسير الكشاف للإمام الزمخشري فبحمد الله ﷻ ومشيئته قد وصل إلينا كاملًا وشاملًا لجميع آيات القرآن الكريم، وقد تأثر كثير من المفسرين بدقة بلاغته وفصاحته وبيان إعجاز القرآن في ذلك، وواقع الثناء كثير من ناحيتها.

وهذا التفسير الذي ينتشر إلينا الآن يتكون من ست مجلدة بتحقيق العلماء: المجلد الأول يحتوي فيه البيان عن ترجمة الإمام الزمخشري وتفسيره الكشاف للمحقق، ومقدمة الإمام الزمخشري وتفسير الآية من

---

[٥٧] انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص٥٤١.

[٥٨] محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، ص٥٧٥. وانظر: محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج١، ص٤٣٢.

[٥٩] محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، ص٥٧٥.

[٦٠] السحات السيد زغلول، **الاتجاهات الفكريّة في التفسير**، (اسكندرية: دار النجاح، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص١٨٨.

سورة الفاتحة إلى سورة آل عمران، والمجلد الثاني يحتوي فيه التفسير من سورة النساء إلى سورة الأنفال، والمجلد الثالث يحتوي فيه التفسير من سورة التوبة إلى سورة الكهف، والمجلد الرابع يحتوي فيه التفسير من سورة مريم إلى سورة الروم، والمجلد الخامس يحتوي فيه التفسير من سورة لقمان إلى سورة القمر، والمجلد السادس وهو الأخير يحتوي فيه التفسير من سورة الرحمن إلى سورة الناس.

الدوافع إلى تأليف الكشاف

ذكر الإمام الزمخشري في فاتحة كشافه ما دعاه إلى تصنيفه، فبيّن أن بعض إخوانه في الدين، يعني في مذهب الاعتزال، اجتمعوا إليه وسألوه أن يملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، واستشفعوا عليه بكل عظيم، إلى أن رحل إلى مكة، وهو مع كل هذا يستعفي، حتى قابل الأمير الشريف أبا الحسن بن وهاس، فصادف منه رغبة كرغبة من سأله الإقدام، فلم يملك إلا الإذعان وتلبية أمر الإمام. ولقد أنهى تفسيره كما يقول في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة[٦١].

منهج الإمام الزمخشري في الكشاف

كان من أهمّ معالم منهجه أن يبدأ باسم السورة، ثم يبيّن مكّيها ومدنيها، ثم يبيّن معناها، وذكر أسمائها إن روي لها أسماء أخرى، مع الإشارة إلى فضلها، ثم يدخل في قراءتها ولغتها، ونحوها وصرفها واشتقاتها وغيرها من العلوم العربية، ثم يشرع في الشرح والبيان والتفسير، ونقل الأقوال، والاحتجاج، والردّ على من خالفه[٦٢].

ويفيض في بيان القراءات ووجوهها، واختلاف معاني الأسلوب القرآني نتيجة لها، ولا ينسى في تفسيره ثقافته النحوية التي كان الإمام الزمخشري إمامًا فيها، كما أنه يكثر من بيان الإعراب ووجوه النحو ويفيض في هذا الإضمار، ويكثر الاستشهاد ببلاغة القرآن الكريم بشعر المحدثين وكلامهم[٦٣].

---

[٦١] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٩.
[٦٢] محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، ص٥٦٣.
[٦٣] المرجع نفسه.

وأما في آيات الأحكام وما يتعلق بالفقه، فإن الإمام الزمخشري يتعرض إلى حد ما إلى المسائل الفقهية من دون تعصب لمذهبه الحنفي[٦٤].

ويمكن أن ننظر مباشرة هذا المنهج من خلال هذه النماذج التالية:

١. كان الزمخشري يبتدئ تفسيره للسورة بذكر اسمها وعدد آياتها، وما إذا كانت مكية، كما في سورة المدثر قوله: "سورة المدثر مكية، وهي ست وخمسون آية"[٦٥]، أو مدنية: كما في سورة البقرة قوله: "سورة البقرة مدنية، وهي مائتان وست وثمانون آية"[٦٦]. وقد يقع حولها الخلاف في نزولها وعدد آياتها فلا يفوت ذكره، مثل سورة محمد، فهي: "مدنية عند مجاهد، وقال الضحاك وسعيد بن جبير مكية، وهي سورة القتال، وهي تسع وثلاثون آية، وقيل ثمان وثلاثون آية، نزلت بعد الحديد"[٦٧]. وقد يفصل أكثر حتى يذكر الآيات المكية والمدنية من السورة، كما في سورة المائدة مثلًا فهي: "مدنية، إلا آية (٣) فنزلت بعرفات في حجة الوداع..."[٦٨]، بعدها يشرع في التطرق إلى معنى الآيات، الواحدة تلو الأخرى حتى يصيبها كلها.

٢. يستعين في الكشف عن معاني الآيات بما هو مناسب للتوضيح والإبانة من قواعد نحوية وإشارات لغوية وقرائن بلاغية.

٣. يستخدم أسلوب المناقشة في كشف بعض المعاني، لغرض استدراج المتلقي لتقبل بعض المسائل المتعلقة بها، بطريقة افتراضية يدعوها بعضهم "الفنقلة"[٦٩]، في قوله: "فإن قلتَ:...، قلتُ:...كقوله في تفسير آية ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:١]: فإن قلتَ: بم تعلقت الباء؟ قلتُ: بمحذوف، تقديره: بسم الله أقرأ وأتلو، لأن الذي يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل وبسم الله أرتحل"[٧٠]. وقوله في تفسير الآية: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل:١] "فإن قلتَ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلتُ: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك"[٧١]. وكانت هذه الطريقة علامة ثابتة في مناقشته التي يتم

---

[٦٤] انظر: محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج١، ص٣٩٩.
[٦٥] انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٦، ص٢٥١.
[٦٦] المرجع نفسه، ج١، ص١٢٨.
[٦٧] المرجع نفسه، ج٥، ص٥١٤.
[٦٨] المرجع نفسه، ج٢، ص١٩٠.
[٦٩] انظر: صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٧٧م)، ص٢٩٤.
[٧٠] انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٠٠.
[٧١] المرجع نفسه، ج٣، ص٤٢٢.

بموجبها توجيه العقول إلى معاني غفلة، أو يستهدفها يرى أنه من اللائق أن يعرفها المتلقي، أو لكونه يفترض مثل هذه الأسئلة من المتلقي فيبادره بها.

٤. يسلك منهج المفسرين الأثريين النقليين في تفسيره لبعض الآيات، وبالتحديد في الآيات التي يؤيد ظاهرها القواعد الاعتزالية، أو في الآيات التي لا تمسّ هذه القواعد بخروجها عنها أو اتهامها لها بوجه من الوجوه. فيفسر القرآن بالقرآن في مواضع كما فعل مع لفظة الكافرون في الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة:٢٥٤]، بأن الله ﷻ أراد: "والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: ﴿**وَالْكَافِرُونَ**﴾: للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ**﴾ مكان: ومن لم يحج..."[٧٢]. وفي قوله ﷻ: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران:٢٨] نهوا أن يولوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يصادق عليها ويتعاشر، وقد كرر ذلك في القرآن ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة:٥١]، ﴿**لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [المائدة:٥١]، ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المجادلة:٢٢]، هذا فيما لا يمس الاعتزال لا بالضد ولا بالموافقة. أما إن كان معنى الآية المتبادر هو غير ما تعارف عليه المذهب الاعتزالي، فإنه يسلك نفس المسلك مع حرص شديد على تأكيد وتضفير معاني الآيات الموافقة لمذهبه، وتضعيف وتضئيل لوجاهة المعاني المناقضة له. وفي هذا المضمار، قد يستشهد أيضًا بالأحاديث النبوية وكلام أعلام الصحابة والتابعين في تفسير آيات السور، ففي الآية: ﴿**ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٦٩] لا يتعدى المعنى الحرفي للآية مستشهدًا بالمأثور؛ فعن النبي ﷺ أن رجلًا جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال: اذهب واسقة عسلًا، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: اذهب واسقة عسلًا، فقد صدق الله ﷻ وكذب بطنك، فسقاه فشفاه الله ﷻ فبرأ، كأنما

[٧٢] المرجع نفسه، ج١، ص٤٨٠.

نشط من عقال. وعن عبد الله بن مسعود: «العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل»[٧٣]. فنراه كيف يحمل الآية على ظاهرها دون أن يتحمل عناء تأويلها، أو تفنيد محتواها عقلًا، لأنه غني عن الوقوف عندها إذ لا تمس بمعتقدات المعتزلة لا من بعيد ولا من قريب، فيتبع سبل المأثور يقتصد على نفسه الجهد والحيلة، وله في ذلك غاية لطيفة وهي كسب تعاطف السنيين وأصحاب الظاهر والاتّباع والنقل، خاصة حين تعمد اجتناب كثير القول والتفصيل، فكّما سنحت له الفرصة كهذه أو شبيهتها إلا واستغلها أيّما استغلال. ويتبادر إلى الأذهان بتصرفه هذا أنه يؤثر النقل في مواطن الحق على أي اعتبار آخر، لاسيما في مثل هذا المعنى الذي لا يتعلق بالاعتزال لا إيجابًا ولا سلبًا، أما مثل صنيعه في الآية السابقة، فلا يتفطن إليه أحد في كونه انزياح غرضي عن المسار الذي اعتمده في تفسيره.

٥. يبيّن الناسخ والمنسوخ من الآيات، مثال ذلك تطرقه للآيات: ﴿**وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**﴾ [النساء:١٥] قال: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ**﴾: قيل معناه: فخلدو هن محبوسات في بيوتكم، وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ**﴾ [النور:٢][٧٤]، أي حكم الآية الأولى أبطله حكم الآية الثانية، واستقرار الحكم لذلك يكون تبعًا لنص الثانية، فيصبح الحكم المعمول به والمعترف به هو الجلد مائة جلدة. ويجمل الحديث عن السورة أحيانًا فيما إذا كانت الأحكام المتضمنة فيما منسوخة أم لا، فتحدث في هذا الموضوع عن سورة المائدة فقال: "قيل: هي محكمة، وعن النبي ﷺ: «المائدة من آخر القرآن نزولًا، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها»، وقال الحسن: «ليس فيها منسوخ»، وعن أبي ميسرة: «فيها ثماني عشرة فريضة وليس فيها منسوخ»[٧٥]، ومبحث الناسخ والمنسوخ مادام يتعلق بالأحكام فإن معرفته يعين على تقدير الأحكام الفقهية والحدود وآليات التدرج في التشريع، وللإمام الزمخشري في ذلك باع لا يخفى على أحد.

---

[٧٣] المرجع نفسه، ج٣، ص٤٥١-٤٥٢.
[٧٤] المرجع نفسه، ج٢، ص٤٠-٤١.
[٧٥] المرجع نفسه، ج٢، ص١٩٢-١٩٣.

٦. يشير إلى المسائل الفقهية والأحكام المستنبطة من الآية وآراء العلماء في ذلك. ورغم كونه حنيفًا في الفروع إلا أنه لم يكن يتعصب لمذهبه ذاك كما يفعل حينما يتعلق الأمر بمذهبه في الأصول، فهو يتحدث عن حكم البسملة ورأي العلماء فيه، فيذهب إلى أن قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ﷻ ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة، وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ﷻ، لذلك يجهرون بها، وعن ابن عباس: من تركها فقد ترك مائة وأربعة عشرة آية من كتاب الله ﷻ"[٧٦]. ثم إن الجاهل بمذهبه الفقهي بأنه حنفي ليستعبد أن يكون كذلك لو أراد أن يستخلصه من كلامه هذا، فقد بلغ به التجرد إلى سرد المأثور الذي ينصر به غير ما ذهب إليه إمام مذهبه أبو حنيفة، وهي حسنة تضاف إلى سجله العلمي.

٧. يبيّن أوجه القراءات في الآية ويستعين بذلك في توضيح معنى الآية، ويقوم ببيان الفرق بين القراءات وما يستتبع ذلك من اختلاف في معنى الآية، ثم يختار الآية التي يرى أنها تجري والنسق المعنوي للقرآن في مضمار واحد، بحيث تحفظ على الأسلوب القرآني جماله وقوة معناه، ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**﴾ [السجدة:١٠]، وقرئ: أَئنّا وأنّا على الاستفهام، وقرأ علي وابن عباس رضي الله عنهم: ضلِلنا: بكسر اللام، وقرأ الحسن رضي الله عنه: صللنا من صلّ اللحم إذا أنتن[٧٧]. وفي الآية، يعرض إلى الاختلافات الطفيفة بين القراءات ومدلولها، ففي الآية ﴿**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ**﴾ [طه:٩٦] قرئ: ﴿**بَصِرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ**﴾: بالكسر، والمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت ما لم تفطنوا له، قرأ الحسن: ﴿**قُبْضَةً**﴾ بضم القاف، وهي اسم المقبوض كالغرفة والمضغة، وقرأ أيضًا: فقبصت قبصة بالصاد المهملة، فالضاد: بجمع الكف، والصاد: بأطراف الأصابع، ونحوهما: الخضم والقضم: الخاء بجمع الفم، والقاف: بمقدمه"[٧٨]. وعرف عنه تسخير القراءات لغرض يخدم معتقده المعتزلي دون هوادة، فلما احتجت المعتزلة

[٧٦] المرجع نفسه، ج١، ص٩٩.
[٧٧] المرجع نفسه، ج٥، ص٣٠.
[٧٨] المرجع نفسه، ج٤، ص١٠٦.

على استحالة رؤية الله ﷻ بالآية الكريمة ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، ردت السنة على أن الرؤية غير الإدراك فاحتجوا هم بدورهم بهذه الآية ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء:٦١] على أن الإدراك في قول أتباع موسى ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ غير معنى الرؤية، فهو بمعنى اللحاق، فتنكر الإمام الزمخشري لهذا المعنى ولهذا اللفظ في هذا الموضع من الآية، بتبنّي القراءة التي ترفع عنه الحرج دفعة واحدة إذ يكفيه أن يثبت تداول هذه القراءة حتى يدحض حجة فرقة السنة، فيقول عن قراءة وهي التي تساعده على تجاوز المأزق: وقرئ: ﴿**إِنَّا لَمُدَّرِكُونَ**﴾، بتشديد الدال وكسر الراء، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففني، ومنه قوله: ﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ**﴾ [النمل:٦٦]، والمعنى: إنّا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم، حتى لا يبقى منّا أحد[٧٩]. فنزوعه إلى إيراد أوجه القراءات لم يكن ترفًا منه إطنابًا، لكن له في الغالب دلالة الانتصار للمذهب الاعتزالي بإعلاء وتقديم القراءة التي من شأنها تحافظ على التصور الاعتزالي لتوالد معاني الآيات القرآنية.

٨. اعتمد في تفسيره كباقي التفاسير على الأحاديث الضعيفة والقصص الإسرائيلية، وأورد حتى أحاديث موضوعة في باب فضائل السور، تقريبًا في كل ختام تفسير أي سورة. كاستشهاد بقول الرسول ﷺ في فضل سورة آل عمران: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أمانًا على جسر جهنم»[٨٠].

٩. تبنّى طريقة تعليمية فى عرض أفكاره، لتسهيل استيعابها وتقبلها القبول الحسن، لأن طبع الإنسان ينفر من التعقيد والتعصب، ويميل إلى البسيط الجاهز، فالإمام الزمخشري لم يكن نخبويًا في خطابه ولا في طريقة نقده أو عرضه، يحاول دوما أن ينطلق مما هو متعارف ومتفق عليه، ثم يبني عليه إثباتاته.

١٠. جعل الآيات القرآنية الموافق ظاهرها لمذهب الاعتزال محكمة وبالتالي تعامل معها في حدود حرفيتها وإثبات جدارتها دون البعيد منها، والمخالفة لأصول الاعتزال متشابهة ومن ثم وجب إيجاد الوجه الذي تحتمله

---

[٧٩] المرجع نفسه، ج٤، ص٣٩٥.

[٨٠] المرجع نفسه، ج١، ص٦٨٤. أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات. انظر: المحقق، هامش الكشاف، نفس الصفحة.

الآية ويكون مناسبًا لمقتضى آراء الاعتزال، "وهذا النحو في التفسير هو ما يعرف بالتأويل"[٨١].

هذا في العموم هو المنهج الذي اتكأ عليه الإمام الزمخشري في تفسيره، وهو منهج كما يتضح من العرض السابق أنه استقصائي لكل دلالة تستفزه، ولكل حكم فقهيّ يستخلصه، ولكل مسألة أو قضية لغوية أو نحوية أو بلاغية يتنبّه إليها فيحاول الفصل فيها.

ثالثا: آراء العلماء فيهما

مميزات الكشاف

هذا التفسير له مميزات، فهي تأتي على هذا النحو:

١. خلوه من الحشو والتطويل.

٢. سلامته من القصص الإسرائيلي غالبًا، فإنه مقلّ في ذكر هذه الروايات، وما يذكره في ذلك، إما أن يصدره بلفظ روي، وإما أن يفوض علمه إلى الله ﷻ، كما فعل في قصة داود وسليمان[٨٢]، ولكن قد توجد فيه الموضوعات التي لا تدرك بالعقل، وذلك مثل الحديث الطويل المروي في فضائل السور[٨٣]، وكذلك ما روي في قصة السيّدة زينب بنت جحش[٨٤]، وقد يذكر بعض الإسرائيليات ولا يفندها مثل ما ذكره في قصة يأجوج ومأجوج[٨٥].

٣. اعتماد في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم في الخطاب.

٤. عنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز القرآني بطريقة فنّيّة قائمة على الذوق الأدبي.

٥. اتباعه طريقة السؤال: "إن قلتَ"، ويقول في الجواب: "قلتُ"، وهي طريقة من طرق التشويق في التعليم وترسيخ المعاني في النفس[٨٦].

بعض المؤاخذات على الكشاف

كل كتاب في الدنيا لا يخلو من عيوب ومآخذ، وهذا الأمر يمشي على طريقة تفسير الكشاف، ومن هذه المآخذ اخترنا ما يلي:

---

[٨١] مصطفى الصاوي الجويني، **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه**، (مصر: دار المعارف، ط٢، ١١١٩هـ)، ص١٠٧.

[٨٢] انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٢٥٢، وص٢٦٨.

[٨٣] انظر: المرجع نفسه،ج١، ص٦٨٥.

[٨٤] انظر: المرجع نفسه، ج٥، ص٧١.

[٨٥] انظر: المرجع نفسه، ج٣، ص٦١٣.

[٨٦] محمد علي ايازي، **المفسرون حياتهم ومنهجهم**، ص٥٧٩.

١. تأويله للفظ القرآني بما يتفق ومذهبه

من أهمّ العيوب التي آخذت على الإمام الزمخشري أنه كان يتصرف في المعاني اللغوية بما يتفق مع مذهبه الاعتزالي. ومن ذلك، تفسيره لقوله ﷻ: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. فهذه الآية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، ورغم ذلك رد الإمام الزمخشري هذا المعنى وذهب إلى أن معنى "ناظرة": منتظرة، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورًا إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص. والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. يريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل: وإذا نظرت إليك من ملك، والبحر دونك زدتني نعمًا[٨٧]. وهذ يجعله غير موضوعي في الحكم على الأشياء، فهو يكاد يلوي عنق نص اللغة وقواعدها نصرة لمذهبه الاعتزالي.

٢. إيغاله في التأويل بالتمثيل والتخييل

كان الإمام الزمخشري إذا حاصره النص القرآني، حاول حمله على التخييل، فيراه عند تعرضه لقوله ﷻ: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. يذكر أربعة أوجه في معنى "الكرسي"، يقول في معانيها: أولًا: إن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد، كقوله ﷻ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر:٦٧]. من غير تصور قبضة وطي ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الزمر:٦٧]. وثانيًا: وسع علمه وسمي العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. وثالثًا: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. ورابعًا: ما روي أنه خلق كرسيًا هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء[٨٨].

٣. حمله للآيات المتشابهات على المحكمات إذا تصادمت مع مذهبه

---

[٨٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٢٠.

[٨٨] المرجع نفسه، ج١، ص٤٨١.

الآيات المحكمة عند الإمام الزمخشري هي التي يتفق ظاهرها مع مذهبه في الاعتزال. أما تلك التي يتعارض ظاهرها مع عقيدته الاعتزالية فمن المتشابهات، وعنده أن هذه المتشابهات ينبغي صرفها عن ظاهرها، وتأويلها يحملها إلى معنى يتفق وما تقول به المعتزلة حتى يزول بذلك التعارض[٨٩]. ومن ذلك، تفسيره لقوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٢٨]، ويقول: "إنه ﷻ لا يأمر بها، لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي، ووجود الصارف فكيف يأمر بفعل"[٩٠]. وواضح من ذلك أنه يلتزم عقيدة المعتزلة التي تذهب إلى أن الله ﷻ لا يريد فعل القبيح، وهذه الآية عند الإمام الزمخشري من المحكمات، وهو يأخذ بظاهرها، ويحمل عليها قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء:١٦]، فيقول في تفسيرها: "أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازًا"[٩١]. فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والآية الثانية متشابهة، فلابدّ من حمل الثانية على الأولى ليتفق المعنى ويتحدد المراد.

فمما تقدم، تبيّن لنا أن الإمام الزمخشري قد فسر الآيات القرآنية على وفق أصول المذهب الاعتزالي، يظهر لنا من خلال ما سبب أن الإمام الزمخشري ما ترك من وسيلة تمكن أن تنصر مذهبه إلا استخدمها فهو يؤوّل كل آية بغير من معانيها حتى تتوافق مع أصول مذهبه ومعتقده الاعتزالي.

عناية العلماء بتفسير الكشاف

اعتمد على تفسير الكشاف الكثير من المفسرين الذين جاؤوا بعده، ومنهم: فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب[٩٢]، والقمي النيسابوري في

---

[٨٩] السحات السيد زغلول، **الاتجاهات الفكريّة في التفسير**، ص١٩٠.

[٩٠] انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص٤٣٢.

[٩١] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص٥٠٠.

[٩٢] أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على، التميمي، البكرى، الطبرستان، الرازي، الملقّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب، الشافعي، ولد سنة (٥٤٤هـ)، كان رحم الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيرًا من العلوم ونبغ فيها، فكان إمامًا في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، وتوفي سنة (٦٠٦هـ). انظر: محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج١، ص٢٤٨.

تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان[٩٣]، وأبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط[٩٤]، وغيرهم. وأخذوا من الكشاف بعض توجيهاته البيانية ولطائفه البلاغية، ومنهم من ناقشه ورد عليه تأويله للآيات بما يتفق مع مذهبه الاعتزالي[٩٥].

وقد وضع علماء أهل السنة حواشي على تفسير الكشاف، ومن أشهرها: حاشية فتوح الغيب في الكف عن قناع الريب للعلَّامة شرف الدين حسن بن محمد الطيبي، والانتصاف من الكشاف للقاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الإسكندري، وحاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي في بيان اعتزاليات الكشاف، والكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني، وهو مختصر من رسالة في تخريج أحاديث الكشاف للإمام أبي محمد الزيلعي[٩٦]، فجزاهم الله ﷻ خير الجزاء.

ووصل إلينا الآن كتب تتعلق بتفسير الكشاف، منها: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، والمفسرون حياتهم ومنهجهم لمحمد عليّ ايازي، ومنهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه لمصطفى الصاوي الجويني، وغيرها الكثير، فجزاهم الله ﷻ خير الجزاء.

فذلك من وجوه عناية العلماء بتفسير الكشاف الذي ثبت لدينا بعد الدراسة أن الكشاف تفسير جليل قدّره العلماء المتقدمون والمتأخرون، والله ﷻ بكل شيء عليم.

ثناء ونقد العلماء على ما فيه من الاعتزال

كان الإمام الزمخشري واسع العلم، رأسًا في البلاغة العربية والمعاني والبيان، وقد شهد له بذلك عدد من العلماء:

---

[٩٣] الإمام الشهير، والعلامة الخطير، نظام الدين، بن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراساني النيسابوري، المعروف بالنظام الأعرج، أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة قم، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور، كان رحم الله من أساطين العلم بنيسابور، ملمًا بالعلوم العقلية، جامعًا لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ في صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير. انظر: المرجع نفسه، ج١، ص٢٧٥.

[٩٤] أثير الدين، محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحياني، الشهير بأبي حيان، المولود سنة (٦٥٤هـ)، والمتوفى بمصر سنة (٧٥٤هـ). انظر: المرجع نفسه، ج١، ص٢٧١.

[٩٥] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص٥٤٢.

[٩٦] المرجع نفسه، ص٥٤٥.

١. قال السمعاني[٩٧]: "كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، لقى الأفاضل والكبار، وصنف تصانيف في التفسير، وشرح الأحاديث، وفي اللغة"[٩٨].

٢. قال ياقوت الحموي[٩٩]: "كان إمامًا في التفسير، والنحو واللغة، والأدب، واسع العلم، كبير الفضل متفننًا في علوم شتى"[١٠٠].

٣. قال القفطي[١٠١]: "كان الإمام الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتسابًا واطلاعًا على كتبها، وقد صنف التصانيف المفيدة فيها، وكان على دراية بأنساب العرب، تضرب إليه أكباد الإبل، وما دخل بلدًا إلا اجتمعوا وتلمذوا له واستفادوا منه"[١٠٢].

٤. قال الذهبي[١٠٣]: "العلَّامة كبير المعتزلة، النحوي، صاحب الكشاف والمفصل، كان رأسًا في البلاغة والعربية، والمعاني والبيان، وله نظم جيد"[١٠٤].

٥. قال ابن حجر[١٠٥]: "إنه صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال"[١٠٦].

---

[٩٧] الإمام الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد أبي المظفر السمعاني، الخرساني المروزي. ولد بمرو سنة (٥٠٦هـ)، وطاف كثيرًا من البلدان، وأخذ عن كثير من المشايخ، توفي سنة (٥٦٢هـ). من تصانيفه الكثيرة: الأنساب، تاريخ مرو في عشرين مجلدًا، معجم البلدان. انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص٤٥٦.

[٩٨] انظر: السمعاني، **الأنساب**، تحقيق: عبد الرحمن المعلمن، (بيروت: محمد أمين دمج، ط٢، ١٤٠٠هـ) ج٦، ص٢٩٧.

[٩٩] ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين، مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين ومن العلماء باللغة والأدب، ولد سنة (٥٧٥هـ)، وتوفي سنة (٦٢٦هـ). من تصانيفه: معجم البلدان، ومعجم الأدباء، وأخبار المتنبي. انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٦، ص١٢٧.

[١٠٠] انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، ج٥، ص٤٨٩.

[١٠١] علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي أبو الحسن جمال الدين، وزير مؤرخ من الكتاب، كان صدرًا محتشمًا، جماعًا للكتب لم يكن له دار ولا زوجة، توفي بحلب عام (٦٤٦هـ). من تصانيفه: إنباه الرواة، والدر الثمين، وأخبار مصر، وتاريخ اليمن. انظر: المرجع نفسه، ج٤، ص٣٨١.

[١٠٢] انظر: أبو الحسن على بن يوسف القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٤٠٦هـ)، ج٣، ص٢٦٦.

[١٠٣] هو الإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله. محدث علامة محقق من كبار المؤرخين، تركماني الأصل، ولد سنة (٦٧٣هـ) بدمشق. وسمع بها وبحلب وبنابلس ومكة من جماعة وسمع منه خلق كثير، وتوفي بدمشق في الثالث من ذي القعدة سنة (٧٤٨هـ). من تصانيفه الكثيرة: تاريخ الغسلام الكبير، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، طبقات الحفاظ، سير أعلام النبلاء. انظر: ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، (حيدر آباد: د.ن، د.ط، ١٩٤٥هـ/١٩٥٠م)، ج٣، ص٣٣٦.

[١٠٤] انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص١٥١.

[١٠٥] شهاب الدين أحمد بن علي محمد بن حجر العسقلاني الشافعي، ولد بمصر سنة (٧٧٣هـ)، هو شيخ الإسلام، أمير المؤمنين في الحديث، وصار حافظ الإسلام وحجة الأعلام ومحي السنة ورحل الناس إليه من الأقطار، وله تصانيف كثيرة مشهورة منها: فتح الباري في شرح صحيح البخاري. وتوفي سنة (٨٥٢هـ). انظر: نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي، **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، (مصر: مطبعة المدني، د.ط، د.ت)، ج١، ص٣٦.

[١٠٦] انظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **لسان الميزان**، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط٢، ١٣٩٠هـ) ج٦، ص٤.

٦. قال السيوطي[١٠٧]: "كان واسع العلم، وكثير الفضل، وغاية في الذكاء وجودة القريحة، ومتفننًا في كل علم، معتزليًا قويًا في مذهبه، مجاهرًا به، داعيًا إليه، علَّامة في الأدب والنحو"[١٠٨].

بعد هذا العرض، ثبت لنا أن الإمام الزمخشري كان حريصًا على طلب العلم رغم أن رجله مقطوعة. وبالجملة، فإن الإمام الزمخشري لم يغمط عليه غير مذهبه في الاعتزال، وهو مأخذ كبير.

[١٠٧] عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين، الخضري، السيوطي، حافظ، مؤرخ أديب، له نحو (٦٠٠) مصنف، ولد عام (٨٤٩هـ)، ونشأ في القاهرة يتيمًا، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس فألف أكثر كتبه، من تصانيفه: الإتقان في علوم القرآن، والأشباه والنطائر، وتدريب الراوي، وبغية الوعاة. انظر: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، (مصر: د.ن، د.ط، ١٣٥٥هـ)، ج٤، ص٦٥

[١٠٨] انظر: جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج٢، ص٢٧٩.

الفصل الثالث
تفسير الإمام الزمخشري للآيات القرآنية المتعلقة بالشفاعة الأخروية

أولًا: الآيات الواردة في إثبات الشفاعة والشفيع

هناك آيات كثيرة تثبت الشفاعة والشفيع بوسائل عديدة، وعملي في هذا المبحث ينحصر في ذكر الآية الكريمة، ثم أبين رأي الإمام الزمخشري فيها محدودًا في إثبات الشفاعة والشفيع، ثم أقارنه بآراء من المفسرين الآخرين من أهل السنة والجماعة.

الآيات التي تقرر الشفاعة بالولاية

١. قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤]. قال الإمام الزمخشري: "أي هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذونًا له"[١].

وقال الإمام الرازي: "في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ﷻ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله ﷻ الذي يأذن في تلك الشفاعة"[٢].

ذكر الإمام الزمخشري في هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ هو مالك الشفاعة جميعًا، فلا يشاركه فيها غيره على الإطلاق. ثم ذكر أنه لا يمكن لأحد أن يشفع غيره إلا بشرطين لا ثالث لهما: أولًا: أن يكون المشفوع له يرضى عنه الله ﷻ. وثانيًا: أن يكون الشفيع قد أخذ الإذن من عند الله ﷻ.

لكن الإمام الرازي ذكر شيئًا غير مخالف لرأي الإمام الزمخشري، وهو أن الشفيع في كل الأحوال هو الله ﷻ، لأنه لا يقدر على فعل الشفاعة أحد إلا الله ﷻ أو فيه يأذن له ﷻ من عباده. وهنا أرى أن لا تناقض بين الرأيين.

٢. قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

---

[١] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٣٠٩.
[٢] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٧، ص٢٨٥.

[السجدة:٤]. قال الإمام الزمخشري: "يبيّن الله ﷻ أن الولاية والشفاعة له، فهي لا تجوز لغيره، وهذه الآية على معنيين: الأول: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليًا، أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم. والثاني: أن الله ﷻ وليكم الذي يتولى مصالحكم، وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز، لأن الشفيع ينصر المشفوع له"[٣].

وقال الإمام الآلوسي: "﴿**مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ**﴾ أي ما لكم مجاوزين الله ﷻ أي رضاه ﷻ وطاعته ﷻ ﴿**وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ**﴾ أي لا ينفعكم هذان من الخلق عنده ﷻ دون رضاه ﷻ"[٤].

من خلال ما قال الإمامان الجليلان، يتضح لنا بأن الولاية والشفاعة له ﷻ إطلاقًا، فهي لا تجوز لغيره إلا برضاه ﷻ. فهنا أرى لا تناقض بين الرأيين. ويمكننا أن نقول: عدم تذكر أن الله ﷻ هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وعدم الإيمان أن الله ﷻ قد استوى العرش يسبب الحرمان في نيل الشفاعة.

الآيات التي تقرر الشفاعة بالإذن الإلهي

١. قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال الإمام الزمخشري: "﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ**﴾ بيان لملكوته وكبريائه. وأن أحدًا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله ﷻ: ﴿**لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾"[٥].

وقال الإمام الآلوسي: "والمقصود منه بيان كبرياء شأنه ﷻ وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعًا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلًا عن أن يستقل بدفعه عنادًا أو مناصبة وعداوة، وفي ذلك تأييس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله ﷻ"[٦].

---

[٣] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٢٨.
[٤] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج٢١، ص١١٩.
[٥] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٤٨١.
[٦] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج٣، ص٩.

ذكر الإمام الزمخشري أن هذه الآية الكريمة تدل على ثبوت شفاعة الشفيع بإذنه ﷻ، وفيها بيان لملكوته وكبريائه، ولا أحد يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام.

والإمام الآلوسي رأى أن هذه الآية الكريمة تثبت الشفاعة لله ﷻ مستقلًا وتؤيس الكفار الذين زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم. وهنا أرى أن الإمام الآلوسي قد بيّن ما قاله الإمام الزمخشري، ولا خلاف بينهما.

٢. قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣]. قال الإمام الزمخشري: "وقوله: ﴿**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ دليل على العزة والكبرياء"[٧].

وقال الإمام الآلوسي: "بيان لاستبداده ﷻ في التدبير والتقدير ونفي للشفاعة على أبلغ وجه، فإن نفي جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفي الشفاعة على أتم الوجوه، فلا حاجة إلى أن يقال: التقدير ما من شفاعة لشفيع. وفي ذلك أيضًا، تقرير لعظمته ﷻ إثر تقرير. والاستثناء مفرغ من أعمّ الأوقات، أي ما من شفيع يشفع لأحد في وقت من الأوقات إلا بعد إذنه ﷻ المبني على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة"[٨].

ذكر الإمام الزمخشري أن هذه الآية الكريمة، كما مرّ من الآيات، قد فصلت أن الله ﷻ يدبر الشفاعة ولا يستطيع أحد الشفاعة إلا بإذنه.

والإمام الآلوسي يرى أن هذه الآية الكريمة تقصر الشفاعة وتحصرها على المأذون له بها بأداتي القصر والحصر (ما) و (إلا)، فهو إثبات للشفيع المأذون له بها، وفي نفس الوقت هو نفي لوجود أي شفيع لم يأذن له الله ﷻ. وهنا أرى أن لا تعارض بين الرأيين.

٣. قوله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]. قال الإمام الزمخشري: "أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿**أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾ والنصب على المفعولية. ومعنى أذن له ﴿**وَرَضِيَ لَهُ**﴾ لأجله. أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله"[٩].

---

[٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص١١٤.
[٨] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج١١، ص٦٥.
[٩] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص١١٠.

وقال الإمام القرطبي: "أي: لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا شفاعة من أذن له الرحمن. ﴿**وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ أي رضي قوله في الشفاعة. وقيل: المعنى، أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضي"[١٠].

ذكر الإمام الزمخشري أن هذه الآية الكريمة أثبتت الشفاعة مع تقييدها بالإذن والرضا، فهي شفاعة مقيدة وليست مطلقة، ذلك لأن أمر الشفاعة أولًا وآخرًا إنما هو لله ﷻ، إذ هو العليم بمدى استحقاقهم، والبصير بكل أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم.

وهذا ما رآه الإمام القرطبي في ذلك اليوم إذ أنه لا يمكن أن تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق، إلا إذا أذن الرحمن للشافع، ورضي عن المشفوع له، وهنا أرى أن لا تعارض بين الرأيين كذلك.

الآيات التي تقرر الشفاعة بالرضا الرباني

١. قوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]. قال الإمام الزمخشري: "ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله ﷻ وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم"[١١].

وقال الإمام الآلوسي: "﴿**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: من قال لا إله إلا الله ﷻ. وشفاعتهم الاستغفار، وهي كما في الصحيح تكون في الدنيا والآخرة ولا متمسك للمعتزلة في الآية على أن الشفاعة لا تكون لأصحاب الكبائر، فإنها لا تدل على أكثر من أن لا يشفعوا لمن لا ترتضي الشفاعة له، مع أن عدم شفاعة الملائكة لا تدل على عدم شفاعة غيرهم ﴿**وَهُمْ**﴾ مع ذلك ﴿**مّنْ خَشْيَتِهِ**﴾ أي بسبب خوف عذابه ﷻ ﴿**مُشْفِقُونَ**﴾ متوقعون من إمارة ضعيفة كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله ﷻ، فمن تعليلية والكلام على حذف مضاف، وقد يراد من خشيته ﷻ ذلك فلا حاجة إليه"[١٢].

---

[١٠] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٤، ص١٤٠.
[١١] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص١٣٩.
[١٢] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج١٧، ص٣٣.

ذكر الإمام الزمخشري أن هذه الآية الكريمة أثبتت الشفاعة إلا أن الشفاعة برفع ثواب المؤمنين دون دفع ضرر العصاة وأصحاب الكبائر، لأن الشفاعة لا تكون إلا للمرضي، والعصاة وأصحاب الكبائر لا يرضى الله ﷻ عنهم.

ولكن الإمام الآلوسي رأى شيئًا مخالفًا لرأي الإمام الزمخشري، وهي أن هذه الآية الكريمة أثبتت شفاعة الملائكة للعصاة وأصحاب الكبائر، لأنهم ممن ارتضى الله ﷻ، استدلالًا للحديث الصحيح عن ابن عباس أن المرضي من قال لا إله إلا الله ﷻ. ولا شك أنهم يشهدون بذلك، مع أن عدم شفاعة الملائكة لا تدل على عدم شفاعة غيرهم. وهنا أرى وجه الخلاف والتناقض بين الرأيين.

الآيات التي تقرر الشفاعة بالتوحيد

١. قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. قال الإمام الزمخشري: "ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله ﷻ الشفاعة، كما رغم المشركون زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﷻ، ولكن في الحقيقة الشفاعة لمن ﴿**شَهِدَ بِالْحَقِّ**﴾ وهو توحيد الله ﷻ، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلًا، لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله ﷻ الملائكة"[١٣].

وقال الإمام الطبري: "أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله ﷻ ذكرُه أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله ﷻ الشفاعة عنده لأحد، إلا من شهد بالحقّ، وشهادته بالحقّ: هو إقراره بتوحيد الله ﷻ، يعني بذلك: إلا من آمن بالله ﷻ، وهم يعلمون حقيقة توحيده، ولم يخصص بأن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد من دون الله ﷻ، فذلك على جميع من كان تعبد قريش من دون الله ﷻ يوم نزلت هذه الآية وغيرهم، وقد كان فيهم من يعبد من دون الله ﷻ الآلهة، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة وغيرهم، فجميع أولئك داخلون في قوله: ولا يملك الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون الله ﷻ الشفاعة عند الله ﷻ. ثم استثنى ﷻ بقوله: ﴿**إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ وهم الذين يشهدون شهادة الحقّ فيوحِّدون الله ﷻ، ويخلصون له الوحدانية، على علم منهم ويقين

[١٣] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٤٦٠.

بذلك، أنهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها، كما قال ﷻ: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ فأثبت ﷻ للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه"[١٤].

فمما تقدم من التفسير، تبيّن لنا أن الإمام الزمخشري يثبت بهذه الآية الكريمة الشفاعةَ يوم القيامة لمن شهد بالحق، ويُنفي الشفاعة عن الآلهة المعبودة من دون الله ﷻ.

وأيّده الإمام الطبري حيث قال أن أولى الأقوال بالصواب هو أن الآية تعم جميع من كانت تعبد قريش من دون الله ﷻ يوم نزلت، وقد كان فيهم من يعبد من دون الله ﷻ الآلهة، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة، فجميع أولئك داخلون في الآية، ثم استثنى الذين يشهدون شهادة الحق فيوحِّدون الله ﷻ، ويخلصون له الوحدانية على علم منهم ويقين بذلك، فهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها، فأثبت للملائكة وعيسى وعزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه.

فمن خلال هذا التعقيب، يرى الباحث أن الإمامين المفسرين لم يختلفا فيما بينهما، بل إن ما قاله الإمام الزمخشري مختصرًا هو مؤَكِّد ومبيِّن لما ذهب إليه الإمام الطبري.

الآيات التي تقرر الشفاعة بالعهد

١. قوله ﷻ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]. قال الإمام الزمخشري: "الواو في ﴿**لَا يَمْلِكُونَ**﴾ إن جعل ضميرًا فهو للعباد، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة. والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم، واتخاذ العهد: الاستظهار بالإيمان والعمل"[١٥].

وقال الإمام القرطبي: "﴿**لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ**﴾ أي هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿**إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه، أي لكن ﴿**مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً**﴾ يشفع، فـ ﴿**مَنِ**﴾ في موضع نصب على هذا. وقيل: هو

[١٤] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٦٦٢.
[١٥] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص٥٦.

في موضع رفع على البدل من الواو في ﴿**يَمْلِكُونَ**﴾، أي لا يملك أحد عند الله ﷻ الشفاعة ﴿**إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ فإنه يملك وعلى هذا يكون الاستثناء متصلًا. وقيل: أي نحشر المتقين والمجرمين لا يملك أحدًا شفاعة ﴿**إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ أي إذا أذن له الله ﷻ في الشفاعة"[١٦].

ذكر الإمام الزمخشري أن هذه الآية الكريمة وإن أثبتت الشفاعة إلا أنها شفاعة مقيدة لذلك المؤمن الذي خاف الله ﷻ، وحافظ على عهد الاستقامة والصلاح. فلا يملك العباد الشفاعة إلا من اتخذ عند الله ﷻ عهدًا وهو الاستظهار بالإيمان والعمل، وعليه ينبغي للمؤمن أن يكون محافظًا على عهده الذي عاهد به مولاه، لأن من ضيع العهد لم يأمن العقوبة، ناهيك بأن هذه الآيات الكريمة لم تثبت الشفاعة بإطلاق، وإنما قيدتها بقيود، وحددتها بشروط، من أهمّها الاستظهار بالإيمان والعمل.

والإمام القرطبي رأى أنه لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع، وذلك حفظهم العهد الذي بينهم وبين الله ﷻ، والعهد لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التي تصل بها بصاحبها إلى حيز الشفاعة. وهنا أرى أن لا تناقض بين الرأيين.

فخلاصة القول: لا أحد يملك الولاية والقدرة على الشفاعة إلا الله ﷻ، وذلك لأن الله ﷻ أراد أن يثبت الملكية له ﷻ، كما أراد أن يشحذ همم الناس للعمل الصالح، وعدم الاتكال على الشفاعات والتعلق بالأماني. وعليه، فإن هناك أربعة شروط التي ذكرها الله ﷻ في كتابه العزيز، إذ لا يمكن أن تتحقق الشفاعة إلا بها، وهي:

الشرط الأول: الإذن من الله ﷻ، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. ومن خلالها يعتقد أن إذن الله ﷻ هو السبب في شفاعة الشافع.

الشرط الثاني: الرضا من الله ﷻ عن الشافع والمشفوع، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:٢٨]. أي لا يشفعون إلا لمن معه عمل مرتضى، وهو أن يرتضي رب العالمين له ربًا ولم يشرك به ﷻ، وهذا يظهر أن العبد هنا هو الفاعل، فثبت بهذا أنَّ

[١٦] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٣، ص٥١٧.

الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضى ربهم ﷻ[17]. يقول الباقلاني: "وإنما تدل هذه الآية على أنه لا شفاعة لكافر لأن الكافر لا طاعة معه"[18]. وقال أبو منصور الماتريدي: "لأن المرتضى هو ذو منزلة وقدر هو ممن تضمنته آية شفاعة الملائكة"[19]. فالمرتضى يستحق شفاعة الملائكة والنبيين والصالحين له، وهذا من أعظم التكريم والتشريف للشافع والمشفوع. لكنه قد ورد في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ في حديثه الطويل حين سأل رسول الله ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة: «وإذا رأوا أنهم قد نجوا، في إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله ﷻ: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله ﷻ صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا. قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا**﴾ [النساء:٤٠]، فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون»[20]. وعلى كل فإن الحديث دل على أنه ﷻ إذا رضي للعبد المذنب قولًا أو عملًا صالحًا فإنه يحصل له الإذن في الشفاعة، وهذا بالضبط معنى أن يرتضي الله ﷻ أن يشفع للعبد، فالفاعل هنا ربنا ﷻ.

الشرط الثالث: الموت على التوحيد من المشفوع لله ﷻ يقينًا وصدقًا، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف:٨٦]. وهذا شرط عظيم فليعتبر[21]، وقال البغوي[22]: "وأراد بشهادة الحق قول لا إله إلا الله ﷻ كلمة

---

[17] مجموعة من الباحثين، منهم: المدير العلمي للمشروع علي بن محمد العمران، آثَار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني، وفق المنهج المعتمد: من الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، (د.م: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٤هـ)، ج٢، ص٥٢١.

[18] أبو بكر الباقلاني، **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٤٢٣.

[19] محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، **التوحيد**، ص٣٦٦.

[20] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٣] رقم الحديث: ٧٤٣٩.

[21] أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، (د.م: مؤسسة الحلبي، د.ط، د.ت)، ج١، ص٣٦.

التوحيد[٢٣]، وهم يعلمون، بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم"[٢٤] ذلك أن النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع[٢٥]. وبهذا قطعت كل أسباب الرجاء التي يمكن أن يستمسك بها المشركون في دخول الجنة، ومثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، قال ﷻ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤١] فمن استمسك بغير الله ﷻ في حال شدته وكربه إلا كمن يستمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئًا، وهذا بخلاف المؤمنين من أهل القبلة فإنهم لله ﷻ مخلصون وله في العمل مستسلمون وبالعروة الوثقى مستمسكون وهي العقد الوثيق المحكم في الدين التي لا انفصام لها لقوتها وثباتها[٢٦].

الشرط الرابع: العهد ويقصد به العمل الصالح، قال ﷻ: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ [مريم:٨٦-٨٧]. يعني إلا من اعتقد التوحيد عند الرحمن ﷻ وهي شهادة الحق أن لا إله إلا الله ﷻ وحده لا شريك له[٢٧] وأخصَّهم بذلك الرسل عليهم السلام، وأتباعهم على درجاتهم[٢٨]. قال ابن الوزير: "فإنه فسَّر العهد بتفسيرين لم يضعِّفْ واحدًا منهما: الأول: الإيمان والعمل الصالح، والثاني: قول لا إله إلا الله ﷻ، وإنما يكون قولًا ثانيًا من غير العمل الصالح، وقوى هذا التأويل

---

[٢٢] أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي نسبة إلى بغ-قرية في خراسان، كان إمامًا في التفسير والفقه والحديث، ورعًا وزاهدًا، من أصحاب الشافعي، له: التذهيب، معالم التنزيل، ومصابيح السنة، توفي بمرو سنة (٥١٦هـ) وقيل سنة (٥١٠هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج٤، ص٤٨.

[٢٣] محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**، حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ج٨، ص٣٧٣.

[٢٤] أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ)، ج٤، ص١٧١.

[٢٥] سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد**، تحقيق: زهير شاويش، (بيروت: دمشق: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٥١.

[٢٦] انظر: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، **التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، (الرياض: دار طيبة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٩٣.

[٢٧] أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: أحمد فريد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٢، ص٣٢٢.

[٢٨] عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ، **مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام**، (د.م: وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والأرشاد، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٣، ص٤٢٨.

بروايته لحديث العهد الصحيح عن النبي ﷺ، وليس فيه عملٌ، ولم يتأوله، ولا ضعَّفه"[٢٩].

فمن تحققت فيه هذه الشروط، فسوف ينال الشفاعة بإذن الله ﷻ، وعليه لم يختلف علماء الأمة في ثبوت الشفاعة على الإجمال، وإنما خلافهم في جوازها للعصاة وأصحابِ الكبائر، والإمام الزمخشري من العلماء الذين نفوا الشفاعة لهم.

ثانيًا: الآيات الواردة في نفي الشفاعة والشفيع

ومن جهة أخرى، ورد في القرآن الكريم عدد لا بأس به من صيغ الآيات التي تدل على نفي الشفاعة والشفيع. فعملي في هذا المبحث ينحصر في ذكر الآية الكريمة، ثم أبيّن رأي الإمام الزمخشري فيها محدودًا في نفي الشفاعة والشفيع، ثم أقارنه بآراء من المفسرين الآخرين من أهل السنة والجماعة.

الآيات التي تنفي الشفاعة بصيغة عدم القبول

١. قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]. قال الإمام الزمخشري: "فإن قلتَ: هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلتُ: نعم، لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقًا أخلَّت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعةَ شفيع، فعلم أنها لا تقبل للعصاة. فإن قلتَ: الضمير في ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلتُ: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾: إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها. ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزي عنها شيئًا، ولو أعطت عدلًا عنها لم يؤخذ منها"[٣٠].

أما الإمام الطبري فقال: "وهذه الآية، وإن كان مخرجها عامًا في التلاوة، فإن المراد بها خاص في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ

---

[٢٩] محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**، ج٨، ص٣٧٣.

[٣٠] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٢٦٦.

أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٣١] وأنه قال: «ليس من نبي إلا وقد أعطي دعوة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله ﷻ منهم من لا يشرك بالله ﷻ شيئًا»[٣٢]. فقد تبيّن بذلك أن الله ﷻ قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينهم وبينه، وأن قوله: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله ﷻ"[٣٣].

يظهر من خلال المقارنة الدقيقة بين الرأيين أنهما مختلفان في النفي الوارد هنا حيث ذهب الإمام الزمخشري بأن الخطاب في الآية الكريمة يعمّ الناس أجمعين (الكفار والعصاة)، وإن كان خاصًا لبني إسرائيل، إذ لا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ، لكن الإمام الطبري أطلق الشفاعة لسائر الموحِّدين إلى أن الخطاب في الآية لليهود كما أنه قد يخصص بما ثبت في السنة من أحاديث تدل على جواز الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر.

الآيات التي تنفي الشفاعة بصيغة عدم الإغناء

١. قوله ﷻ: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]. قال الإمام الزمخشري في مقولة هذا الرجل[٣٤]: "فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه: إن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم، وما أدفع العقول وأنكرها، لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أي يكونوا شفعاء عنده، ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه، إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز. وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿**إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس:٢٥]. أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به"[٣٥].

---

[٣١] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ماجاء في الشفاعة رقم الحديث: ٢٤٣٥. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.**

[٣٢] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة للأمة، رقم الحديث: ١٩٩. وأخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم الحديث: ٣٦٠٢. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.**

[٣٣] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١، ص٦٣٧.

[٣٤] هو حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن برسول الله ﷺ. انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص١٧١. وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٩، ص٤١٩.

[٣٥] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص١٧٢.

وقال الإمام الطبري: "وقوله ﴿**أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**﴾ أأعبد من دون الله ﷻ آلهة، يعني معبودًا سواه ﴿**إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ**﴾ إذ مسني الرحمن بضر وشدة ﴿**لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا**﴾ لا تغني عني شيئًا بكونها إليَّ شفعاء، ولا تقدر على رفع ذلك الضر عني ﴿**وَلا يُنْقِذُونِ**﴾ ولا يخلصوني من ذلك الضر إذا مسني"[٣٦].

فمما تقدم من التفسير، تبيّن لنا أن الإمام الزمخشري والإمام الطبري متفقان بأن الله ﷻ يملك الشفاعة، ولا تنفع من غيره. فهذا النفي في هذه الآية الكريمة متوجه صراحة إلى الآلهة المعبودة من دون الله ﷻ، فهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

الآيات التي تنفي الشفاعة باستخدام لا النفي المطلق بصيغة المصدر

١. قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

قال الإمام الزمخشري: "وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمّتكم من الواجب، لم تجدوا شفيعًا يشفع لكم في حط الواجبات. لأنّ الشفاعة ثمة في زيادة الفضل، لا غير ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: ﴿**وَالْكَافِرُونَ**﴾ للتغليظ"[٣٧].

وقال الإمام الرازي: "يخاطب الله ﷻ عباده المؤمنين في هذه الآية، ويأمرهم بالإنفاق من رزقه، ويحذرهم من مجيء يوم القيامة الذي لا ينفع فيه البيع والخلة ولا الشفاعة. والخطاب في هذه الآية بالكفار أو بمن لم يؤذن له بها، بدليل ما جاء في نهاية الآية الكريمة، حيث إنه ﷻ لما قال: ﴿**وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾، أوهم ذلك نفي الخلة والشفاعة مطلقًا، فذكر ﷻ عقيبه ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ ليدل على أن ذلك النفي مختص بالكافرين"[٣٨].

من خلال هذه الآية الكريمة، رأى الإمام الزمخشري بأن الشفاعة فضل زائد للمؤمنين فحسب. وليس للكافرين والظالمين لتغليظهم من منع الزكاة شفيعًا لهم في يوم القيامة.

---

[٣٦] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٩، ص٤٢٢.
[٣٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٤٧٩.
[٣٨] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٦، ص٢٢٣.

ولكن الإمام الرازي ذكر شيئًا مخالفًا له، بأن هذه الآية الكريمة أثبتت الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر من المؤمنين ونفت الشفاعة للكافرين.

الآيات التي تنفي الشفاعة باستخدام لا النفي المطلق بصيغة الفاعل

١. قوله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١]. قال الإمام الزمخشري: "في موضع الحال من يحشروا، بمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين، ولا مشفوعًا لهم، ولابدّ من هذه الحال، لأن كلًا محشور، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال"[٣٩].

وقال الإمام الرازي: "في هؤلاء ثلاثة أقوال: القول الأول: الأول أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم، وذلك لأنه ﷺ كان يخوفهم من عذاب الآخرة، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف. والقول الثاني: أن المراد منه المؤمنون، لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم. والقول الثالث: أنه يتناول الكل، لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر، سواء قطع بحصوله أو كان شاكًا فيه، لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة فكان هذا الخوف قائمًا في حق الكل، ولأنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى الكل، وكان مأمورًا بالتبليغ إلى الكل. وخص في هذه الآية الذين يخافون الحشر، لأن انتفاعهم بذلك الإنذار أكمل بسبب أن خوفهم يحملهم على إعداد الزاد ليوم المعاد"[٤٠].

فمن خلال هذا التعقيب، يرى الباحث أن الإمامين المفسرين لم يختلفا فيما بينهما، بل إن ما قاله الإمام الزمخشري مختصرًا هو مؤكِّد ومبيّن لما ذهب إليه الإمام الرازي مفصَّلًا، بحيث أشار إلى ضرورة التزود بالتقوى ليوم المعاد، حتى يؤهل الإنسان لنيل الشفاعة من الشافعين، لأن التقوى سبب عظيم لنيل الشفاعة.

٢. قوله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]. قال الإمام الزمخشري: "إن الشفعاء هم أولياء الله ﷻ، وأولياء الله ﷻ لا يحبون ولا يرضون إلاّ من أحبه الله ﷻ ورضيه، وأنّ الله ﷻ لا يحبّ الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم، قال الله ﷻ: **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ**

[٣٩] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص٣٤٩.
[٤٠] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٢، ص٢٤٤.

أَنْصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠]. لأن الشفاعة لا تكون إلاّ في زيادة التفضل، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله ﷻ: ﴿**وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [الشورى:٢٦]. وعن الحسن ﷺ: والله ﷻ ما يكون لهم شفيع البته"[٤١].

وقال الإمام الطبري: "وقوله: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ**﴾ ما للكافرين بالله ﷻ يومئذ من حميم يحم لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله ﷻ، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويُجاب فيما سأل"[٤٢].

لقد نصت هذه الآية الشريفة على نفي الشفيع عن الظالمين، ولكنهما اختلفا في المراد بالظالمين هنا. فسر الإمام الزمخشري ﴿**بِالظَّالِمِينَ**﴾ بالعصاة والكافرين بينما فسر الإمام الطبري بالكافريين فقط. على رأي الباحث، أن الله ﷻ أراد بهذه الآيات الكريمة التهديد والوعيد، والزجر والتأنيب. فإن لم تعمّ جميع الظالمين، ما كان لها من وقع في نفوس الموحِّدين من الفسقة الفاجرين المتعدين لحدود لله ﷻ رب العالمين، ولساغ بحسب منهجهم في الدين، تخصيص كثير من الآيات بالكافرين بيد أن الله ﷻ أراد بها تهديد الناس أجمعين، ليحذروا بطشه الأليم، وليرتقوا إلى سلم جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا. ومن الجدير بالذكر أن الظلم يمنع الشفاعة.

الآيات التي تنفي الشفاعة عن الأصنام بصيغة الجمع غير العاقل

١. قوله ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]. قال الإمام الزمخشري: "ثم يجيبهم الله ﷻ بأن ذلك ليس بمعلوم عند الله ﷻ. وإذا لم يكن معلومًا له، لم يكن شيئًا، لأن الشي ما يعلم ويخبر عنه. وهذا تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام"[٤٣].

وقال الإمام الرازي: "إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله ﷻ من عبادة الله ﷻ، فقالوا: ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة

---

[٤١] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٣٣٧.
[٤٢] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٣٠٢.
[٤٣] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص١٢٣.

الله ﷻ بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام وأنها تكون شفعاء لنا عند الله ﷻ"[٤٤].

نظر الكفار حينما يعبدون الأصنام أنها سوف تشفع لهم، لكن الله ﷻ يبيّن لعابد الأصنام أنها لا تنفع ولا تضر: ولا تشفع لنفسها، فكيف تشفع لعابدها. ففي الآية حث على ترك عبادة الأصنام، لأنها تورث العذاب في النار ولا تنفع صاحبها. ولكن العبادة المحقة هي عبادة الله ﷻ، فهذه تنفع صاحبها وتشفع له عند الله ﷻ. هنا أرى أن الإمام الزمخشري والإمام الرازي لهما شيء واحد بأن هذه الآية الكريمة تخاطب الكفار، الذين يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وتبين ما يعتقدون من شفاعتهم عند الله ﷻ بلا دليل ولا برهان.

الآيات التي تنفي الشفاعة عن الناس بصيغة الجمع العاقل

١. قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠٢]. قال الإمام الزمخشري: "أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة، علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع، لأن ما لا ينفع حكمه حكم شفعاؤهم عند الله ﷻ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس"[٤٥].

وقال الإمام الآلوسي: "والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم في التأسف حيث نفوا أولًا أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ونفوا ثانيًا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشف عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم وأتى بالشافع في سياق النفي"[٤٦].

ومن خلال ما تقدم من كلام الإمامين المفسرين، يظهر لنا أنهما مختلفان بحيث نفى الإمام الزمخشري الشفيع على الإطلاق، بينما كان نفي الإمام الآلوسي على التخصيص بأن الله ﷻ حكى في هذه الآية الكريمة ما يقوله الكافرون وهم يصطلون نار جهنم، حيث تتقطع بهم الأسباب وتنحل بينهم الروابط والعلاقات، التي كثيرًا ما جمعت بينهم في الحياة الدنيا، فلا

[٤٤] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٧، ص٦٣.
[٤٥] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص٤٠١.
[٤٦] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج١٩، ص١٠٤.

ينفع الشفيع، ولا يدفع الصديق ما آلوا إليه، وحكم عليه. ومن الممكن أن نقول: عدم الصحبة الطيبة يحرم شفاعة الشافعين.

الآيات التي تنفي شفاعة الشافعين

١. قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٦-٤٨]. قال الإمام الزمخشري: "أي: لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم؛ لم تنفعهم شفاعتهم: لأنّ الشفاعة لمن ارتضاه الله ﷻ، وهم مسخوط عليهم. وفيه دليل على أنّ الشفاعة تنفع يومئذ؛ لأنها تزيد في درجات المرتضين"[٤٧].

وقال الإمام الرازي: "واحتج أصحابنا على ثبوت الشفاعة للفساق بمفهوم هذه الآية، وقالوا إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين"[٤٨].

يحكى الله ﷻ في هذه الآية الكريمة حال المكذبين بيوم الدين من المشركين والمنافقين، حيث لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا هم عن النار بمبعدين، وذلك لأن المنافق نفاقًا عقديًا قد يكذب بيوم الدين في الباطن، مع إظهاره الإسلام. هنا أرى عدم الاتفاق بينهما.

فجملة القول: لقد كانت بعض الآيات النافية للشفاعة محل خلاف بين الأمة. وذلك بسبب ما ينطلق منه كل فريق من أصول عقدية، وأدلة نقلية تدعم أقوالهم وتساند مذهبهم على أن النفي يظهر فى كل آيات الشفاعة حتى تثبتها تلك الآيات بقيد الإذن والرضى، فإنها مسبوقة بالنفي، وكأن الله ﷻ يريد أن يفرق بين الشفاعة الدنيوية التي يعهدها الناس فيما بينهم وبين الشفاعة الأخروية التي لا تتعارض مع الآيات القرآنية الدالة على أن الجزاء من جنس العمل. وأن معظم آيات الشفاعة قد جاءت في سياق دعوى المشركين أن الآلهة والملائكة ستشفع لهم عند الله ﷻ إذ يقيسون أحوال الحياة الدنيا بالحياة الآخرة وشتان بين شفاعة العبد الضعيف المحدود وشفاعة الرب القوي المطلق، الذي يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن كيف يكون كما يعلم استحقاق المحق بما يستحق من الثواب أو العقاب وهو القائل ﷻ ذكره في كتابه العزيز: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت:٤٦]. ولذا، الإمام الزمخشري رأى أن الشفاعة تكون لزيادة الفضل للمؤمنين، دون لدفع

[٤٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٦، ص٢٦٣.
[٤٨] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٠، ص٢١١.

الضرر للعصاة وأصحاب الكبائر، لأن الشفاعة لا تكون إلا للمرضي، والعصاة وأصحاب الكبائر لا يرضى الله ﷻ عنهم، ولا تكون للكفار بلا شك.

ثالثًا: الجمع بين الآيات الواردة في إثبات الشفاعة والشفيع ونفيهما

من خلال ما تقدم من آيات بينات، تحدثت عن الشفاعة إثباتًا ونفيًا الذي فسرها الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف من جهة، وعند المفسرين من جهة أخرى. قبل أن نجمع بين الإثبات والنفي، لابدّ لنا أن نضع هذه النقاط لتتضح الصورة، فيسهل الجمع:

١. جميع فرق الأمة متفقة على ثبوت الشفاعة الأخروية بدليل ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. أجمعت الأمة على أصل الشفاعة، قال القاضي عبد الجبار: "لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة، وإنما الخلاف في أنها تثبت لمن؟"[٤٩].

٢. أكثر الآيات التي أثبتت الشفاعة تبدأ بنفيها أولًا ثم تستثني منها ما كان بإذنه ﷻ ورضاه، ولمن ارتضى وكذلك الحال في الآيات التي تثبت الشفيع.

٣. في أكثر آيات نفي الشفاعة دلالة واضحة على التحذير والإنذار، منها ما يخص بني إسرائيل، ومنها ما هو موجه إلى هذه الأمة.

٤. بعض آيات نفي الشفاعة أو الشفيع يخاطب الله ﷻ بها أولئك الذي يعتقدون النفع والشفاعة من آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ﷻ، ويعظمونها أكبر تعظيم، وهي لا تنفع نفسها فضلًا عن أن تفيد غيرها.

نستطيع معرفة الجمع بين الإثبات والنفي في آيات الشفاعة من خلال وجهة نظر الفريقين، وبيان ذلك: إن من قيد الشفاعة الأخروية بالتوبة، حددها للمرتضين الأخيار من عباد الله ﷻ الأطهار، وتكون بتعجيل فصل القضاء يوم القيامة، ودخول الجنة (الشفاعة العظمى)، ويرفع الدرجات والثواب فيها. قالوا: لا منافاة بين الإثبات والنفي، لأن الآيات التي أثبتت الشفاعة، حددتها بشروط لا تنطبق إلا على التائبين المتقين من أهل التوحيد دون سواهم، والآيات النافية للشفاعة إنما كان معظمها في سياق التهديد والوعيد لكل من ابتعد عن نهج الإسلام عقيدة وسلوكًا، من الكافرين المشركين، والفاسقين المجرمين فلا شفاعة لهؤلاء وأمثالهم، ممن ظلم نفسه

[٤٩] انظر: القاضي عبد الجبار، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٨. وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج١١، ص١١٦.

بالكفر بربه أو الإصرار على معصيته، بل هي ثابتة لمن تاب وصدق في إيمانه ﷻ ورضاه.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا[٥٠]: "في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقًا، كقوله ﷻ: ﴿**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة:٢٥٤]. وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة كقوله ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:٤٨]. وآيات تقيد النفي بمثل قوله ﷻ: ﴿**إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقوله ﷻ: ﴿**إلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:٢٨]. فمن الناس من يحكم الثاني بالأول، ومنهم من يرى أنه لا منافاة بينهما، فنحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر، لأن مثل هذا الاستثناء (أي الاستثناء بالإذن والمشيئة) معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للإشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته، كقوله ﷻ: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**﴾ [الأعلى:٦-٧]. وقوله ﷻ: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ [هود:١٠٧]. فليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث بإثباتها فما معناها؟"[٥١].

ثم فسر الشفاعة المقصودة بالدعاء، وعليه، فإن من تتبع آيات الشفاعة في القرآن (المثبتة والنافية) فإنه يرى أنها إما أن تنفي الشفاعة مطلقًا، أو تنفي قبولها أو منفعتها أو تنفيها عن الظالمين والمجرمين، أو تقيدها بإذنه، وإذن الله ﷻ كما قيل: أنه معهود في مقام النفي القطعي، إذ أن كل شيء في هذا الوجود لا يتم ولا يتحقق إلا بإذنه وإذنه كما حكاه محمد رشيد رضا عن أستاذه[٥٢]، وذلك مما استأثر الله ﷻ بعلمه فلا يعلمه غيره إلا إذا شاء إعلامه به، فهو غير معروف لأحد من خلقه، ولذلك ذكر محمد رشيد رضا عن أستاذه محمد عبده أن ما ورد في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات، وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم، وأنها مزية يختص الله ﷻ بها من يشاء يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة (الشفاعة)

---

[٥٠] محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن علي خليفة البغدادي الأصل، الحسني النسب أحد رجال الإصلاح الإسلامي، من العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد في القلمون من طرابلس ورحل إلى مصر سنة (١٣١٥هـ)، واتصل بالشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وأصدر مجلة المنار، وتفسير القرآن والوحي المحمدي، والوهابيون والحجاز، توفي بمصر ودفن فيها سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص٣٦١.

[٥١] محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ج١، ص٢٦٩.

[٥٢] المرجع نفسه، ج٣، ص٣٠.

ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله ﷻ عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي[٥٣]، إلا أنه ليس هنالك شيء من المتشابه في موضوع الشفاعة، إذ الآيات القرآنية صريحة في نفيها عن الظالمين، وتثبتها أحيانًا عن طريق الاستثناء لمن ارتضى وأذن الله ﷻ له، ويحمل هذا الاستثناء على الشفاعة العظمى التي اتفقت عليها الأمة.

أما من أطلق الشفاعة لسائر الموحِّدين من المؤمنين والفاجرين، وإن لم يتوبوا ويعودوا لرب العالمين، فإنهم يرون أن آيات نفي الشفاعة والشفيع إنما تتوجه للكافرين من عبدة الملائكة والأوثان والأجرام، أولئك الذين كانوا يعتقدون منفعتها وشفاعتها من دون الله ﷻ، أو تلك الشفاعة التي تكون بدون إذنه، فهي لا يمكن أن تتحقق إلا بإذنه ورضاه، وهي عامة لكل الموحِّدين، إما بدخول الجنة ابتداء، أو بالخروج من النار كما دلت الأحاديث، ولذلك تحمل آيات الإثبات على هذه الشفاعة التي يخص الله ﷻ بها عباده الموحِّدين، إذ يكون من بينها شفاعته ﷺ للعصاة وأصحاب الكبائر حتى يدخلوا الجنة أو يخرجون من النار.

صفوة القول: إن آيات نفي الشفاعة خاصة بالمشركين الكافرين وآيات الإثبات إنما هي خاصة للموحِّدين من المؤمنين، لأن الله ﷻ ارتضى إيمانهم وما يدينون به، فمن وفى منهم ما عليه من حقوق وواجبات دخل الجنة بإذن الله ﷻ، ومن لم يوف ما عليه كان في مشيئة الله ﷻ، إن شاء الله ﷻ أدخله الجنة بإذنه لمن يشفع له، وإلا دخل النار ثم يخرج منها إما بشفاعة الأنبياء أو برحمة رب السماء، إذ لا يخلد في النار موحِّد، وبذلك يمكن الجمع بين الإثبات والنفي في آيات الشفاعة إلا أن هذا ترده أدلة القرآن والسنة والعقل.

[٥٣] محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج١، ص٢٧٠.

الفصل الرابع
تحليل لموقف الإمام الزمخشري من الشفاعة الأخروية في تفسيره

اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ هو الشافع والشفيع والمشّفع يوم القيامة، وأن الشفاعة ثابتة له ﷺ، ولغيره من الملائكة والأنبياء والشهداء بالكتاب والسنة[1]. واتفق أهل السنة والجماعة على إثبات شفاعة النبي ﷺ للعصاة وأصحاب الكبائر من المسلمين الذين ماتوا ولم يتوبوا من ذنوبهم، بينما أنكرها المعتزلة[2]، والإمام الزمخشري قد صرّح منكراً للشفاعة وقال: بأن الشفاعة المذكورة في الكتاب ليست سوى رفع الدرجات وزيادة ثواب المشفوع فيهم من المؤمنين، أما العصاة وأصحاب الكبائر، فهم في نار جهنم خالدون فيها أبدًا، واستدل على ذلك بأدلة سنعرض لها إن شاء الله ﷻ بالنقد والتمحيص.

أولًا: الشفاعة في زيادة الفضل لا غير

اعتمد الإمام الزمخشري في تفسيره لآيات القرآن الكريم عمومًا على خمسة أركان، هي الأركان التي يقوم عليها مذهب الاعتزال. وهذه المبادئ والأركان الخمسة هي التوحيد[3]، والعدل[4]، والوعد والوعيد[5]، والمنزلة بين

---

[1] انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٨، بتصرف.

[2] انظر: أبي بكر بن الطيب الباقلاني، **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص٢٣١، بتصرف.

[3] التوحيد: هو أن الله ﷻ إله واحد، ليس بجسم، وليس في مكان، فهو في كل مكان بالعلم. وما ورد في القرآن عن يده، يؤوَّل بقدرته، وعن عينه، يؤول بعلمه وهكذا. ففي قوله ﷻ: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم**﴾ [الفتح:١٠]، يقولون: قدرة الله فوق قدرة الناس. وفي قوله ﷻ عن سفينة نوح عليه السلام: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**﴾ [القمر:١٤]، يقولون: تجري بعناية الله ورعايته. انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص١٤٩، بتصرف.

[4] العدل: هو أن الله ﷻ منح العبد القدرة على أن يفعل الشيء وعلى أن لا يفعله. وذلك لكي يأتي يوم القيامة ليأخذ جزاءه على عمله، ولا يعترض على الله أثناء الحساب بأنه هو الذي كتب عليه الشر وألزمه وطلبه منه. ويقول المعتزلة: إذا تحقق العدل، فإنه لا قضاء ولا قدر. والناس هم الذين ينشأون أقدارهم بأيديهم، والله لم يقدر أي شيء أي إنسان. ويستدلون بقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [يونس:٤٤]. انظر: المرجع نفسه، ص٢٩٩، بتصرف.

[5] الوعد: هو قول الله ﷻ للطائع: سأدخلك الجنة، وقوله للعاصي: سأدخلك النار. وفي القيامة يقولون: لابدّ أن يتحقق ذلك، ليس لأننا نجبر الله ﷻ على فعل العدل، بل لأن الله ﷻ هو الذي ألزم نفسه بذلك. وأننا لنحكى عن الله ما حكاه هو عن نفسه. فقد قال ﷻ: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٩] وهذا الوعد والوعيد في الآخرة يستلزمه نفى الشفاعة، لأنها في نظرهم ضد الحق والعدل. انظر: المرجع نفسه، ص٦٠٩، بتصرف.

المنزلتين[٦]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٧]. وقضية الشفاعة تندرج تحت ركن الوعد والوعيد عند المعتزلة. والمراد بالوعد والوعيد عندهم أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرةٍ ارتكبها، خلد في النار، وكان عذابه أخَفَّ من عذاب الكفار. فالله ﷻ أصدق القائلين، فهو موفٍ لوعده منجزٌ لوعيده فلا تبديل لكلماته، فهو يتوب على المذنبين إذا اعترفوا ويمحوا عنهم السيئات إذا تابوا[٨].

واستحق العصاة وأصحاب الكبائر عقوبة من الله ﷻ، وهي الخلود في النار، وأما عذاب عصاة المسلمين فهو أخَفُّ عذابًا من الكافرين، لكنهم لا يستحقون رضا الله ﷻ. ولا يستحقون شفاعته يوم القيامة. لأن الذين يستحقون رضا الله ﷻ سينالون شفاعته، وهم من الذين آمنوا بالله ﷻ ظاهرًا وباطنًا وعملوا الصالحات، فلهم أجرهم عند ربهم، كما صرحت به بعض الآيات القرآنية كقوله ﷻ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهذا ما ذهب إليه الإمام الزمخشري في فقهه الاعتزالي.

إذا تأملنا في حقيقة الشفاعة، نجد أنها تنحصر في إزالة العقوبة أو تخفيفها أو إخراج الناس من النار. وهذا يخالف رأي الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف، حيث ذهب إلى أن الشفاعة زيادة فضل للمؤمنين، وهي منفية عن العصاة[٩].

وذهبت المعتزلة بالوعيد إلى نكران الشفاعة التي تضافرت على إقرارها كل من آيات القرآن الحكيم والسنة النبوية الشريفة، ولا دليل لهم على ذلك إلا أنها تتعارض مع ما أحدثوه من الوعيد. مما جعلهم يؤوّلون الآيات التي تثبت الشفاعة فأعرضوا عنها كليّةً[١٠].

والمعتزلة يرون أن أصحاب الكبائر يخلدون في النار، فلا ينفعهم بعد موتهم دعاءُ أهلهم ولا استغفارهم له، ويستدلوا على ذلك من قوله ﷻ: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ [النجم:٣٩]. فالسبيل إلى الخلاص من

---

[٦] المنزلة بين المنزلتين، فإنما تكون في الدنيا. ومعناها: أن المسلم العاصى يكون في منزلة بين الكفر والإيمان، لأنه ليس بكافر لنطقه بالشهادتين، وليس بمؤمن لعدم عمله بالشريعة. ومن كانت هذه حالته يستحق لقب فاسق. والفسق منزلة بين الكفر والإيمان في الدنيا، أما في الآخرة، فهو خالد في النار استيفاء بمبدأ الوعيد عند المعتزلة. انظر: المرجع نفسه، ص٦٩٥، بتصرف.

[٧] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مسلم، لكن تنفيذ الأحكام على العصاة واجب على ولاة الأمر. انظر: المرجع نفسه، ص٧٣٩، بتصرف.

[٨] انظر: أبو لبابة حسين، **موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها**، (الرياض: دار الوفاء، د.ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص٦٨.

[٩] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٣٣٧.

[١٠] انظر: أبو لبابة حسين، **موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها**، ص٦٩.

كبائر الذنوب لا يكون إلا بتوبةٍ نصوحةٍ خالصةٍ، وإن أجاز لله ﷻ أن يعفو عن صغائرها قبل التوبة، وليست التوبة لفظًا يردده اللسان فحسب، وإنما يجب أن تكون مصحوبة بندمِ ارتكاب المعصية مع عزمٍ على عدم العودة إليها مجددًا، ويشترط المعتزلة في التوبة ردُّ الحقوق والمظالم إلى أهلها، وأن لا يكرر التائب فعل المعصية وأن يستشعر على الدوام ندم فعله لها، وأن لا تكون التوبة مؤقتة أو مفصّلة، بل يجب أن تكون دائمة وعامة، ولا تنفع التوبة بعد أن يعجز التائب عن إتيان المعصية أو قبيل أن يموت[١١].

وأرى هنا أن هذا موقف المعتزلة من العصاة المسلمين موقف متصلب له أبعاد نفسية بل هو متعلقة في حب تعذيب الله ﷻ لخلقه، ولربما أبالغ في القول فأقول إنه ينبع من قساوة في القلب لأنه لابدّ على النظر برحمة إلى الخلق.

ثانيًا: نفي الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر

لقد استدل الإمام الزمخشري وفريقه من علماء المعتزلة على نفي الشفاعة للعصاة ولأصحاب الكبائر بأدلة واضحة وكثيرة من الكتاب والسنة والعقل، وذلك على النحو التالي:

الأدلة النقلية

الدليل الأول: قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]. قال الإمام الزمخشري: "فإن قلتَ: هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلتُ: نعم، لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقًا أخلَّت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعةَ شفيع، فعلم أنها لا تقبل للعصاة. فإن قلتَ: الضمير في ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلتُ: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾: إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها. ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزي عنها شيئًا، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها"[١٢].

---

[١١] أحمد محمود سبحي، **في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة ١)**، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٥٨.

[١٢] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٢٦٦.

والمدقق في هذه المقولة للإمام الزمخشري يرى أن هذا تضييق لواسع رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء، كما قال ﷻ: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٥٦]، ونحن يحق لنا أن نتساءل فهل لمجرد الإنسان أن يعصي ربه يصبح بعيدًا عن رحمة الله ﷻ ولا ينال الشفاعة حتى ولو مات من غير توبة ذلك الذنب. فإن الله ﷻ وعدنا أن يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به. ففي الأول قال ﷻ: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر:٥٣]، وقال ﷻ في الثانية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء:١١٦]، فهل بعد هذا الخطاب من حجة لمن يؤمن بأن الشفاعة لا تنال العصاة من المسلمين.

ويقول القاضي عبد الجبار: "الآية تدل على أن من استحق العقاب لا يشفع النبي ﷺ له، ولا ينصره؛ لأن الآية وردت في صفة اليوم ولا تخصيص فيها، فلا يمكن صرفها إلى الكفار دون أهل الثواب، وهي واردة فيمن يستحق العذاب في ذلك اليوم، لأن هذا الخطاب لا يليق إلا بهم، فليس أحد أن يطعن على ما قلناه بأن يمنع الشفاعة للمؤمنين أيضًا، ولو كان النبي ﷺ يشفع لهم، لكان قد أغنى عنهم وأجزى، فكان لا يصح أن يقول ﷻ: ﴿**لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا**﴾، ولما صح أن يقول: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾. وقد قبلت شفاعته ﷺ فيهم. ولما صح أن يقول: ﴿**وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾؛ لأن قبول الشفاعة وإسقاط العقاب إلى المغفرة، أعظم من كل فداء لهم عما قد استحقوه من حيث تزول بها ولمكانها، ولما صح أن يقول: ﴿**وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾، وأعظم النصرة تخليصهم من العذاب الدائم بالشفاعة. فالآية دالة على على ما نقول من جميع هذه الوجوه"[١٣].

[١٣] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، تحقيق: عدنان محمد زرزور، (القاهرة: دار التراث، ط١، ١٩٦٩هـ) ج١، ص٩٠-٩١.

المناقشة:

إن استدلال الإمام الزمخشري وفرقة المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر باطل؛ وذلك لأن الشفاعة المنفية في الآية هي الشفاعة للكافرين والمشركين، ويدل على ذلك ما يلي:

أ- إجماع العلماء والمفسرين من أهل السنة والجماعة على أن المراد بالنفس في الآية الكريمة هي: النفس الكافرة، أي النفس التي مات صاحبها على الكفر والشرك. وسوف أختار بعض أقوال العلماء من أهل السنة والجماعة الذين يثبتون قولًا واحدًا أن صاحب الكبيرة يستحق له الشفاعة وإن مات عليها دون أن يتوب.

يقول الطبري[١٤]: "وهذه الآية وإن كان مخرجها عامًا في التلاوة، فإن المراد بها خاص في التأويل...إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله ﷻ[١٥]. وقال القرطبي: "النفس الكافرة، لا كل نفس"[١٦]. "فعلى هذا، يكون العام الذي أريد به الخاص"[١٧].

يقول النووي الشافعي[١٨] في شرح مسلم؛ قال القاضي عياض[١٩]: "مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلًا ووجوب سمعًا بصريح قوله ﷻ: ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾ [طه:١٠٩]. وقوله ﷻ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:٢٨] وأمثالها[٢٠]. ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منا وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾

---

[١٤] أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام الجليل المجتهد المطلق، ولد بطبرستان سنة (٢٢٤هـ)، ورحل عن بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فسمع بمصر والشام والعراق ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقي بها حتى مات سنة (٣١٠هـ)، وهو صاحب التفسير القيم، كان حافظًا لكتاب الله ﷻ بصيرًا به، وكان فقيهًا عالماً برع في علوم كثيرة من علم القراءات والتفسير والحديث والفقه والتاريخ وكتبه مشهورة في ذلك. انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٢٣٢.

[١٥] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١، ص٦٣٧.

[١٦] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٧٨.

[١٧] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ط، ١٤٠٤هـ) ج١، ص٧٦.

[١٨] محيى الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ولد بنوى سنة ٦٣١هـ، وكان أبوه من أهلها المستوطنين بها. وتوفي الإمام النووي سنة (٦٧٦هـ). انظر: ابن السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح محمود الحلو، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت) ج٢، ص٢٧.

[١٩] ابن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته ولي قضاء سبتة ثم عرناطة، ومن تصانيفه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وشرح صحيح مسلم، وترتيب المدارك، توفي بمراكش سنة (٥٤٤هـ). انظر: أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج٤، ص١٣٠٤.

[٢٠] يحي بن شرف النووي، **شرح مسلم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) ج٣، ص٣٥.

[المدثر:٤٨] وبقوله ﷻ: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر:١٨]، وهذه الآيات في الكفار"[٢١].

يقول ابن تيمية: "وجواب أهل السنة والجماعة أن هذا يراد به شيئان: أحدهما: أنها لا تنفع المشركين كما قال ﷻ في نعتهم: ﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:٣٨-٤٨]. فهؤلاء نُفي عنهم نفع شفاعة الشافعين، لأنهم كانوا كفارًا. والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع: من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله ﷻ من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض"[٢٢].

يقول ابن جزي الكلبي[٢٣]: "فكل ما ورد في القرآن من نفي الشفاعة مطلقًا يحمل على هذا؛ لأن المطلق يحمل على المقيد، فليس في هذه الآيات المطلقة دليل للمعتزلة على نفي الشفاعة"[٢٤].

يقول ابن كثير[٢٥]: "قوله ﷻ: ﴿**وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ يعني من الكافرين، كما قال ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:٤٨].ثم قال: فقد أخبر الله ﷻ أنهم لما لم يؤمنوا برسوله ﷺ ويتابعوه على ما بعثه الله ﷻ به ووافوا الله ﷻ يوم القيامة، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة شافع، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض"[٢٦]. فإذا كان المراد بالنفس في الآية النفس الكافرة، فالشفاعة المنفية في الآية الشفاعة للكفار لا للعصاة؛ وإذًا فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر.

---

[٢١] المرجع نفسه، ج٣، ص٣٥. وقال مثله ابن بطال كما نقل عنه ابن حجر في فتح الباري، ج١١، ص٤٢٦.

[٢٢] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، ج١، ص١٤٩. وانظر: محمد الصالح العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، ص٤٠٦.

[٢٣] أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، ولد سنة (٦٩٣هـ). هو فقيه من العلماء بالأصول واللغة. من أهل غرناطة. وتوفي الإمام ابن جزي سنة (٧٤١هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص٣٢٥.

[٢٤] محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ج١، ص٦٦.

[٢٥] إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى، أبو الفداء عماد الدين، حافظ مؤرخ، ولد فى قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أبيه إلى دمشق، ورحل فى طلب العلم حتى صار من الأئمة المشار إليهم، وتوفى بدمشق. وهو صاحب التفسير المشهور والبداية والنهاية في التاريخ. توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: موقع وزارة الأوقاف المصرية، **موسوعة الأعلام**، ج١، ص٤٧٩.

[٢٦] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص٢٥٦.

يقول ابن الوزير اليماني[٢٧] في تفسير قوله ﷻ: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾: "لكنها في الكافرين، كما قال ﷻ في سورة الحديد في خطاب المنافقين ﴿**فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [الحديد:١٥]، وفي تخصيصهم بالذكر إشارة إلى القبول من المسلمين بمقتضي مفهوم الصفة، والمسلمون أيضًا باقون على الأصل في حسن ذلك"[٢٨].

يقول السفاريني: "مما احتجت المعتزلة لمذهبهم في نفي الشفاعة بقوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾، وقوله ﷻ: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر:١٨]. وزعموا أن من دخل جهنم يخلد فيها، لأنه إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة، هذا رأيهم ومن وافقهم، وهو رأي فاسد ومذهب باطل ترده الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة وإجماع أهل الحق أيدهم الله ﷻ. وأجابوا عن الآية الكريمة أن المراد بقوله ﷻ: ﴿**لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا**﴾ الكفار للآيات الواردة، والأخبار الثابتة في الشفاعة"[٢٩].

ب- لقد ثبتت عدة أحاديث في هذا الباب، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٣٠]. وأنه ﷺ قال: «ليس من نبي إلا وقد أعطي دعوة، وإني قد اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله ﷻ منهم من لم يشرك بالله ﷻ شيئًا»[٣١].

---

[٢٧] محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير: مجتهد باحث، من أعيان اليمن. وهو أخو الهادي بن إبراهيم. ولد في هجرة الظهران (من شطب: أحد جبال اليمن) سنة (٧٧٥هـ)، وتعلم بصنعاء وصعدة ومكة. وأقبل في أواخر أيامه على العبادة. وتوفي سنة (٨٤٠هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص٣٠٠.

[٢٨] محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، **إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م) ج١، ص٢٦٤.

[٢٩] محمد بن أحمد السفاريني، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، ج٢، ص٢١٧.

[٣٠] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ماجاء في الشفاعة رقم الحديث: ٢٤٣٥. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.**

[٣١] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة للأمة، رقم الحديث: ١٩٩. وأخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم الحديث: ٣٦٠٢. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.**

وإذا ثبتت الشفاعة لأهل الكبائر؛ فلابدّ من أن تكون الشفاعة المنفية في الآية إنما هي الشفاعة للكفار؛ جمعًا بين الآية والأحاديث[٣٢]. واقتصر بالكفار الذين أنكروا وحدانية الله ﷻ وماتوا على الكفر والإلحاد والشرك. وقد حددت لنا الآية في سورة إبراهيم حيث تحدثت عن الكفار الذين يستحقون العذاب الشديد يوم القيامة إذ لو أنهم استحقوا الشفاعة ما عذبوا في نار جهنم، وهذا دليل منطقي وعقلي أنهم ماداموا قد نالوا العذاب فقد حرموا نيل الشفاعة، وهؤلاء ثلاثة أقسام بنص الآية ﴿**وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [إبراهيم:٢].

١. ﴿**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**﴾: بمعنى أنهم استغرقت لدنيا عقولهم وافئدتهم ولم يفكروا في الآخرة، لا في نعيمها ولا في جحيمها.

٢. ﴿**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾: حيث إن الصدد عن سبيل الله ﷻ له قسمان:

القسم الأول: استخدام أساليب لفظية وكلامية ساخرة ومضحكة لمن يتبع النبي ﷺ، فأحيانًا يحاولون اقناع الناس بشتى الأساليب حتى لا يتبعوا محمدًا ﷺ، وهذا ما كان يفعله أبو لهب حيث كان يلاحق الحجاج الذين كانوا يأتون إلى مكة، ويقول لهم: هذا ابن أخي وهو مجنون فلا تتبعوه.

القسم الثاني: أساليب الضرب والقتل والعنف والقوة والتعذيب في الصد عن سبيل الله ﷻ، وهو ما كان يفعله أبو جهل وأميه بن خلف حيث قتل أبو جهل والد عمار وأمه سمية.

٣. ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾: فهؤلاء اتخذوا من الكفر مصلحةً، واستخدموا مسائل فكرية غير مستقيمة من أجل البناء في الكفر. فهؤلاء هم لا تنال شفاعة الله ﷻ ولا شفاعة رسول الله ﷺ.

ج- والآية في سياقها تثبت أن المخاطبين فيها هم اليهود الذين كانوا يعتقدون أن آباءهم الأنبياء سوف يشفعون لهم، فنزلت هذه الآية لرد هذا الاعتقاد وبيانِ أنه لا ينفعهم عنده إلا التوبةُ إليه من كفرهم والإنابةُ من ضلالهم، وجعل ما سن فيهم من ذلك إمامًا لكل من كان على مثل منهاجهم؛ لئلا يطمع ذو إلحاد في رحمته[٣٣].

---

[٣٢] انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١، ص٦٣٧، ومحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٧٨، بتصرف.

[٣٣] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١، ص٦٣٦، وانظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، ج١، ص٧٧، بتصرف.

يقول البيضاوي[٣٤] في تفسيره الذي اختصر تفسيره من تفسير الكشاف المعتزلي: "وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت ردًّا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم"[٣٥].

وأما قول المعتزلة بأن قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ بأنه عام في نفي شفاعة النبي ﷺ وغيره، فيقول الإيجي في بيان بطلانه: "إنه لا عموم له في الأعيان، لأن الضمير لقوم معينين فلا يلزم أن لا تنفع الشفاعة غيرهم ولا في الزمان لأنه لوقت مخصوص فلا يلزم عدم نفعها في غير ذلك الوقت"[٣٦].

وبذلك يكون استدلالهم بهذه الآية على أن العصاة وأصحاب الكبائر لا تنفعهم الشفاعة لا يستقيم وذلك لأن المقصود في الآية هي الكافر لا المسلم.

الدليل الثاني: قوله ﷻ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]. قال الإمام الزمخشري: "إن الشفعاء هم أولياء الله ﷻ، وأولياء الله ﷻ لا يحبون ولا يرضون إلاّ من أحبه الله ﷻ ورضيه، وأنّ الله ﷻ لا يحبّ الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ [البقرة:٢٧٠]. لأن الشفاعة لا تكون إلاّ في زيادة التفضل، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله ﷻ: ﴿**وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [الشورى:٢٦]. وعن الحسن ﷺ: والله ﷻ ما يكون لهم شفيع البته"[٣٧].

ويقول القاضي عبد الجبار: "إن الله ﷻ بيّن في هذه الآية أن الظالم لا يشفع له النبي ﷺ، وأن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين، لتحصل لهم مزية في التفضل وزيادة في الدرجات مع ما يحصل له ﷺ من التعظيم والإكرام"[٣٨].

---

[٣٤] ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمرو بن محمد، من قرية يقال لها البيضا، له التفسير المنسوب إليه ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، توفي سنة (٦٩١هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج٥، ص٣٩٢.

[٣٥] عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ج١، ص٣١٩. وانظر: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت) ج١، ص٩٩.

[٣٦] عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، **كتاب المواقف**، ج٣، ص٥٠٨.

[٣٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٣٣٧.

[٣٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٦٠٠.

المناقشة:

جاء معنى الظلم عند أهل اللغة ليدل على وضع الشيء في غير موضعه[٣٩]، وفي الشريعة: عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل وهو الجور، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[٤٠]. وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق[٤١].

أ- إن المراد بالظالمين في الآية هم الكافرون، لأن الظلم إذ أطلق انصرف إلى الكفر، إذ أن الكفر أعظم الظلم، بدليل قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣][٤٢]، وقول النبي ﷺ: «وشفاعتي نائلة إن شاء الله ﷻ منهم من لم يشرك بالله ﷻ شيئًا»[٤٣]. وفي آية وقال ﷻ فيها حاكيًا عن أهل النار قولهم: ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠٢].

فعلى هذا، فالشفاعة منفية عن الكفار، وصاحب الكبيرة ليس بكافر، فيبطل الاستدلال بالآية. وقد ذهب إلى تأويل الظالمين بالكافرين أو المشركين مفسروا أهل السنة وغيرهم، وبيان ذلك: يقول الحافظ البيهقي: الظالمون هاهنا هم الكافرون، ويشهد لذلك مفتتح الآية، إذ هي في ذكر الكافرين[٤٤].

يقول الطبري في تفسير الآية: "وقوله: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ**﴾ يقول ﷻ: ما للكافرين بالله ﷻ يومئذ من حميم يحم لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله ﷻ، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويُجاب فيما سأل"[٤٥]. وهذا ما ذهب إليه الإمام الباقلاني إلى أن الظلم الوارد في الآية معناه الكفر[٤٦]، ويقول ابن الجوزي[٤٧]، وابن جزي الكلبي[٤٨]، ويقول الآلوسي[٤٩] في تفسير ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ**﴾ يعني الكافرين.

---

[٣٩] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص٣٧٣.

[٤٠] محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص١٨٧.

[٤١] انظر: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٥٣٧.

[٤٢] عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، **الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية عقيدة أَهْل السنة والجماعة**، ج١، ص٣٣٠.

[٤٣] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة للأمة، رقم الحديث: ١٩٩. وأخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم الحديث: ٣٦٠٢. **قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.**

[٤٤] أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ) ج١، ص٢٨٠.

[٤٥] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٣٠٢.

[٤٦] انظر: أبي بكر بن الطيب الباقلاني، **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، ص٢٣٨.

واستدل الباقلاني بقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾. ثم قال: ولهذا، لما نزل قوله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام:٨٢]، حزن الصحابة ﷺ حتى قالوا: وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال ﷺ: "ليس هو كما تظنون، وإنما هو من قول لقمان لإبنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾"[٥٠]. فدل أن لا شفاعة تنفع الكافر، والمؤمن بخلاف ذلك، وإن كانت له سيئات[٥١]. ومما يدل على صحة ما ذهب إليه الباقلاني قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة:٢٥٤].

يقول التفتازاني[٥٢]: "بعد تسليم العموم في الأزمان والأحوال أنها تختص بالكفار جمعًا بين الأدلة على أن الظالم على الإطلاق هو الكافر، وأن نفي النصرة لا يستلزم نفي الشفاعة، لانها طلب على خضوع والنصرة ربما تنبىء عن مدافعة ومغالبة هذا بعد تسليم كون الكلام لعموم السلب لا لسلب العموم وقد سبق مثل ذلك"[٥٣].

ب- إن لفظ الظالمين إما أن يدل على الاستغراق، وإما أن لا يدل عليه. فإن أفاد الاستتغراق، كان المراد من الظالمين مجموعهم، ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفار، ونحن نقول بعدم استحقاق هذا المجموع للشفاعة، لأن بعضًا منه هم الكفار، وليس لهم شفيع، فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع. وإن لم يفد الاستغراق، كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم

---

[٤٧] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، ج١٠، ص٧٧.

[٤٨] محمد بن أحمد بن جزي الكبلي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج٤، ص٧.

[٤٩] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج٢٤، ص٥٩.

[٥٠] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب تفسير القرآن، باب ولا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، رقم الحديث: ٤٧٧٦. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم الحديث: ١٢٤.

[٥١] انظر: أبي بكر بن الطيب الباقلاني، **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، ص٢٣٨، بتصرف.

[٥٢] سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، ونسبته إلى تفتزان في خراسان، عالم بالأصلين والنحو والتصريف والمعاني والبيان، اشتهر ذكره وعلا صيته، من تصانيفه: شرح العضد، وشرح التلخيص، والمقاصد وشرحه وشرح الشمسية في المنطق وغيرها، مات بسمرقند سنة (٧٩١هـ). انظر: عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت) ج١٢، ص٢٢٨.

[٥٣] سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، **شرح المقاصد في علم الكلام**، (باكستان: دار المعارف النعمانية، د.ط، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ج٢، ص٢٤٠.

شفيع، وهم الكافرون. فعلى كلي الاحتمالين، فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة لأصحاب الكبائر[٥٤].

يقول القرطبي: "ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له، فلا تعمّ هذه الآيات كل من يعمل سوءًا وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين، بدليل الأخبار الواردة في ذلك، وأيضًا فإن الله ﷻ أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام، فقال في صفة الكافرين: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾، وقال: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾، وقال: ﴿**وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾، فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين...ونحن إن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص، فلا نقول إنهم مخلدون فيها، بدليل الأخبار التي رويناها وبدليل قوله ﷻ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَّشَاءُ**﴾ وقوله ﷻ: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧]، فإن قالوا فقد قال ﷻ: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ والفاسق غير مرتضى، قلنا: لم يقل لمن يرضى وإنما قال: ﴿**لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ ومن ارتضاه الله ﷻ للشفاعة هم الموحِّدون، بدليل قوله: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾"[٥٥].

ج- إن الله ﷻ نفى في الآية شفيعًا يطاع، وهذا لا يدل على نفي الشفيع. ألا ترى أنك إذا قلتَ: ما عندي كتاب يباع، لا يلزم منه نفي الكتاب. ثم إن الآية تدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله ﷻ؛ لأنه ليس في الوجود أحد أعلى حالًا من الله ﷻ حتى يقال: إن الله ﷻ يطيعه[٥٦].

فحينئذ نفي الشفيع المطاع لا يقتضي نفي الشفاعة، وعليه فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة لأصحاب الكبائر؛ وبذلك يبطل استدلالهم بهذه الآية، وذلك أن المقصود في هذه الآية هم الكافرون.

الدليل الثالث: قوله ﷻ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨].

قال الإمام الزمخشري: "ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله ﷻ وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم"[٥٧].

---

[٥٤] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢، ص٦٩، ج٢٧، ص٥٢.
[٥٥] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٧٧.
[٥٦] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٧، ص٥١.
[٥٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص١٣٩.

ويقول القاضي عبد الجبار: "الآية تدل على أن الشفاعة لا تكون إلا لمن كانت طرائقة مرضية، وأن الكافر والفاسق ليسا من أهلها"[٥٨]. ويقول الرازي: "احتجت المعتزلة بقوله ﷻ: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ على أن الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر، لأنه لا يقال في أهل الكبائر إن الله ﷻ يرتضيهم"[٥٩].

المناقشة:

إن معنى الآية: ولا يشفعون إلا لمن رضي الله ﷻ أن يشفعوا له وأذن فيه. ومن ارتضاه الله ﷻ للشفاعة هم الموحِّدون. يقول ابن عباس والضحاك: ﴿**إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ أي: لمن قال لا إله إلا الله ﷻ[٦٠]. ومما يدل على أن الآية في الموحِّدين قوله ﷻ: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ [مريم:٨٧]، يقول المفسرون: إلا من قال لا إله إلا الله ﷻ. فإن قالوا: المرتضى هو التائب الذي اتخذ عند الله ﷻ عهدًا بالإنابة إليه، بدليل قوله ﷻ: ﴿**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ [غافر:٧]، فقلنا: عندكم يجب على الله ﷻ قبول التوبة، فإذا قبل الله ﷻ توبة المذنب، فلا يحتاج إلى الشفاعة، ولا إلى الاستغفار. وأيضًا: فقد أجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله ﷻ: ﴿**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا**﴾ من الشرك ﴿**وَاتَّبِعُوْا سَبِيْلَكَ**﴾ سبيل المؤمنين سألوا الله ﷻ أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم، كما قال ﷻ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَّشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨][٦١]. وعلى ذلك، فالآية ليس فيها نفي للشفاعة، وإنما حصر لها للموحِّدين، وصاحب الكبيرة مما سوى الشرك موحِّد، وعليه فيبطل استدلالكم بالآية.

إن هذه الآية وسائر الآيات التي تنفي الشفاعة بإطلاق فهي من باب المطلق المقيد، وتقييدها يكون بالآيات التي تثبتها بالشروط، وتبقى الآيات التي تنفي عدم استحقاق الكافرين للشفاعة موافقة لعموم نفي الشفاعة، وهذا

---

[٥٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٤٩٩.
[٥٩] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣، ص٦٤، وج٢٢، ص١٦٠.
[٦٠] المرجع نفسه، ج٢٢، ص١٦٠.
[٦١] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٦، ص٢٥٢. وفخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣، ص٦٤.

لا إشكال فيه، وبهذا يكون الجمع بين الآيات الشفاعة الواردة بشأن الشفاعة، وهذا الجمع بين الآيات هو ما قرره العلماء.

يقول الآمدي[٦٢] في الردّ على استدلاهم بالقرآن الكريم: "وأما إنكار الشفاعة للمذنبين والعصاة من المسلمين، فذلك إنما هو فرع مذهب أهل الضلال...وما ذكروه من الآيات والظواهر السمعيات، فمحمول على الكافرين المستحلين لما يأتونه، المستوجبين لما يقترفونه، دون العصاة من المؤمنين، ومن أذنب ذنبًا من المسلمين، ودليل التخصيص في ذلك قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء:١١٦]، ومع قيام الدليل المخصص لها يمتنع القول بتعميمها[٦٣].

يقول التفتازاني: "بأنا لا نسلم أن من ارتضى لا يتناول الفاسق، فإنه مرتضى من جهة الإيمان والعمل الصالح، وإن كان مبغوضًا من جهة المعصية، بخلاف الكافر المتصف بمثل العدل أو الجود، فإنه ليس بمرتضى عند الله ﷻ أصلًا لفوات أصل الحسنات وأساس الكمالات، ولا نسلم أن الذين تابوا لا يتناول الفاسق، فإن المراد تابوا عن الشرك، إذ لا معنى لطلب مغفرة من تاب عن المعاصي وعمل صالحًا عندكم؛ لكونه عبثًا، أو طلبًا لترك الظلم بمنع المستحق حقه هذا بعد تسليم دلالة التخصيص بالوصف على نفي الحكم عما عداه"[٦٤].

يقول الشنقيطي[٦٥] في تفسيره قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ قال: "قوله ﴿**وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ ظاهرة هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقًا يوم القيامة. ولكنه بيّن في موضع آخر أن الشفاعة المنفية هي

---

[٦٢] علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي: أصولي، باحث. أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها سنة (٥٥١هـ)، وتعلم في بغداد والشام. وانتقل إلى القاهرة، فدرس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا فيها واشتهر. وحسده يبعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد القعيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفيًا إلى "حماة" ومنها إلى "دمشق" فتوفي بها سنة (٦٣١هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص٣٣٢.

[٦٣] علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي، **غاية المرام فى علم الكلام**، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د.ط، ١٣٩١هـ) ج٢، ص٣٠٩. وانظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، ص١٤٩.

[٦٤] سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، **شرح المقاصد في علم الكلام**، ج٢، ص٢٤٠.

[٦٥] هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد رحمه الله بالقطر المسمى شنقيط من دولة موريتانيا، وكان مولده في عام (١٣٢٥هـ/١٩٠٥). وتوفي رحمه الله ضحى يوم الخميس ١٧ من ذي الحجة (١٣٩٣هـ) بمكة المكرمة مرجعه من الحج، ودفن بمقبرة المعلاة بربع الحجون في مكة. انظر:
http://www.saaid.net/Warathah/1/shankeety.htm

الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم، بدون إذن رب السموات والأرض. أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع. فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله ﷻ: ﴿**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾، وقد قال: ﴿**وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾، وقال ﷻ عنهم مقررًا له: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ**﴾، وقال: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِيْنَ**﴾، إلى غير ذلك من الآيات"[٦٦].

ويقال للمعتزلة بأن قولكم بأن الشفاعة المذكورة هي أن يشفع النبي ﷺ إلى الله ﷻ في زيادة فضله لأهل الجنة برفع درجاتهم هول قول فاسد، وبيان ذلك أن الله ﷻ وعدهم ذلك الفضل، فقال ﷻ: ﴿**يُوَفِّيْهِمْ أُجُوْرَهُمْ وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ والله ﷻ لا يخلف وعده، فإنما يشفع إلى الله ﷻ عندكم من أن يخلف وعده، وهذا جهل منكم، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحقه عقابًا أن يوضع عنه عقابه، أو في من لم يعده شيئًا أن يتفضل عليه به، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقًا، فلا وجه لهذا[٦٧].

وبذلك استدلالهم بهذه الآية على حصر الشفاعة في الطائعين لأن العصاة لا يرضى الله ﷻ عنهم فغير صحيح لأن الآية لا تعلق لها بالعصاة وإنما تنفي الشفاعة الشركية التي كان المشركون يظنون أنها تنفعهم.

الدليل الرابع: قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩]. قال الإمام الزمخشري: "وقوله: ﴿**أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ**﴾ يفيد أنّ الله ﷻ هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه"[٦٨].

ويقول القاضي عبد الجبار: "الآية تدل على أن من أخبر الله ﷻ أنه بعدله لا يخرج من النار، فإذا صح أنه أخبر بذلك في الفجار والفساق، فيجب ذلك فيهم. ويدل أيضًا: على أنه ﷺ لا يشفع لهم؛ لأنه لو شفع لهم، لوجب أن يكون منقذًا من النار، وقد نفى الله ﷻ عنه ذلك"[٦٩].

---

[٦٦] محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ج١، ص٩٠.
[٦٧] انظر: أبو الحسن الأشعري، **الإبانة عن أصول الديانة**، ج١، ص٢٤٤، بتصرف.
[٦٨] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٢٩٨.
[٦٩] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٥٩٢.

المناقشة:

يقال للمعتزلة إن الآية في أهل الكفر والضلال، وليست في أهل التوحيد والإيمان. يقول الطبري: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ**﴾. أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربك يا محمد بكفره[٧٠]. وبكلمة العذاب: هي قوله ﷻ لإبليس: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص:٨٥][٧١].

يقول الآجري[٧٢] في الردّ على استدلال المعتزلة بالقرآن الكريم في نفي الشفاعة عن أصحاب المعاصي: "إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأً فاحشًا خرج به عن الكتاب والسنة، وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر، أخبر الله ﷻ: أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها، فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحِّدين، ولم يلتفت إلى أخبار رسول الله ﷺ في إثبات الشفاعة أنها إنما هي لأهل الكبائر، والقرآن يدل على هذا، فخرج بقوله السوء عن جملة ما عليه أهل الإيمان، واتبع غير سبيلهم قال الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾"[٧٣].

وردًّا على استدلالات المعتزلة بالقرآن في نفي الشفاعة؛ يقول الآجري: "هذه كلها أخلاق الكفار، فقال ﷻ: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾. فدل على أن لابدّ من شفاعة وأن الشفاعة لغيرهم لأهل التوحيد خاصةً، وقال ﷻ: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ، رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ [الحجر:١-٢]. وأضاف: "وإنما يودّ الكفار أن لو كانوا مسلمين عندما رأوا معهم في النار قومًا من الموحِّدين فعيروهم وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار فحزنوا من ذلك فأمر الله ﷻ الملائكة والأنبياء ومن سائر المؤمنين أن يشفعوا فيهم فشفعوا فأخرج من في النار من أهل التوحيد ففقدهم أهل الكفر فسألوا عنهم فقيل: شفع فيهم

---

[٧٠] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص١٨٦.

[٧١] انظر: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٢٤، ص٦٠٦.

[٧٢] محمد بن الحسين بن عبد الله ، أبو بكر الآجري: فقيه شافعي محدث. نسبته إلى آجر (من قرى بغداد) ولد فيها، وحدث ببغداد، قبل سنة (٣٣٠) ثم انتقل إلى مكة، فتنسك، وتوفي فيها سنة (٣٦٠هـ). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص٩٧.

[٧٣] أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، **الشريعة**، تحقيق محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص٣٣٤-٣٣٥.

الشافعون لأنهم كانوا مسلمين، فعندها ودوا لو كانوا مسلمين حتى تلحقهم الشفاعة"[٧٤].

وإذا كانت الآية في الكافرين، فلا دلالة فيها على نفي الشفاعة عن صاحب الكبيرة، لأنه ليس ممن حقت عليه كلمة العذاب، كيف يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب مع قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾. وقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر:٥٣]. وقوله ﷺ: «من شهد أنه لا إله إلا الله ﷻ، وأن محمدًا ﷺ رسول الله حرم الله ﷻ عليه النار»[٧٥،٧٦]وغيرها من النصوص الدالة على الوعيد بالمغفرة لما مات لا يشرك بالله ﷻ شيئًا. وصاحب الكبيرة ليس بمشرك. إذًا فالآية ليست في صاحب الكبيرة. وعليه فيبطل الاستدلال بها على نفي الشفاعة لصاحب الكبيرة. وعلى التسليم بأن هذه الآية في أهل الكبائر، فإن الرسول ﷺ لا ينقذ أحدًا بنفسه، وبدون مشيئة الله ﷻ وإذنه؛ بل لا يشفع إلا لمن ارتضى الله ﷻ وأذن بالشفاعة له، وصاحب الكبيرة ممن ارتضى الله ﷻ أن يشفع له؛ لأنه مؤمن موحِّد.

وبذلك استدلالهم بهذه الآية على نفي الشفاعة في أهل الكبائر في غير محلّه، لأن الآية نزلت في قوم من أهل الشرك، كان النبي ﷺ حرص على هدايتهم وقد سبق في علم الله ﷻ أنهم من أهل الشقاوة.

الأدلة العقلية

الدليل الأول: قول القاضي عبد الجبار: "لقد دلت الدلائل على أن العقوبة تستحق على طريق الدوام، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة الرسول ﷺ والحال ما تقدم؟"[٧٧].

المناقشة:

نقول للمعتزلة إن الأدلة العقلية لا تفيد إلا الأحكام الظنية، والأمور الظنية غير معتبرة في القضايا الاعتقادية المستندة إلى الكتاب والسنة، وإجماع

---

[٧٤] المرجع نفسه، ص٣٣٦.

[٧٥] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، رقم الحديث: ٢٩.

[٧٦] انظر: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٦، ص٢٦٣.

[٧٧] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٩.

الأمة المطابق للكتاب والسنة. وإن هذا القول الذي زعمتموه دلالة عقلية باطل لمخالفته للكتاب والسنة والإجماع، كما أنه باطل لما يلي:

أ- أن الأدلة الدالة على دوام العقوبة عامة، وأدلة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر خاصة، والخاص مقدم على العام، فوجب القطع بأن النصوص الدالة على الشفاعة مقدمة على العمومات الدالة على دوام العقوبة[٧٨]، وبهذا يزول الإشكال وتبطل هذه الشبهة.

ب- هذا القول ينتموه على أصلكم فاسد بتخليد الفاسق في النار، وقد سبق عرض شبهاتكم الواردة حول هذا الكلام عند رأيكم في الوعيد، وإبطاله، فإذا بطل الأصل، بطل الفرع.

الدليل الثاني: قول القاضي عبد الجبار: "أليس أن الأمة اتفقت على قولهم: اللهم اجعلنا من أهل الشفاعة. فلو كان الأمر على ما ذكرتموه، لكان يجب أن يكون هذا الدعاء دعاء لأن يجعلهم الله ﷻ من الفساق"[٧٩].

ويقول الرازي[٨٠]: "واستدلت المعتزلة على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر بوجوه...إلى أن قال: وسابعها: أن الأمة مجمعة على أنه ينبغي أن نرغب إلى الله ﷻ في أن يجعلنا من أهل شفاعته عليه السلام، ويقولون في جملة أدعيتهم: واجعلنا من أهل شفاعته، فلو كان المستحق للشفاعة هو الذي خرج من الدنيا مُصرًّا على الكبائر؛ لكانوا قد رغبوا إلى الله ﷻ في أن يختم لهم مصرين على الكبائر"[٨١].

المناقشة:

فهذا الدعاء إنما يدل على أن النفس المؤمنة نفس بشرية عارفة بطبيعتها فكل ابن آدم خطاء، كما قال النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[٨٢]. ومادام الخطأ يصدر من ابن آدم فلابدّ أن يطلب الشفاعة والعفو من الله ﷻ، ولهذا يكون طلب الدعاء مبررًا.

---

[٧٨] انظر: فخر الدين الرازي، **الأربعين في أصول الدين**، (حيدر آباد-الدكن: مجلس دائرة المعارف العثمانية، د.ط، د.ت) ص٤٠٠-٤٢٣، بتصرف.

[٧٩] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٩٢.

[٨٠] فخر الدين، محمد بن عمر بن الحسين، سلطان المتكلمين في زمانه، صاحب التفسير الكبير من أئمة الأشاعرة، كان له باع طويل في الوعظ، وكان يبكي كثيرًا في وعظه، توفي سنة (٦٠٦هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج٥، ص٢١.

[٨١] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢، ص٦١.

[٨٢] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم الحديث: ٢٤٩٩. **قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة.**

يقول القرطبي في معرض الرد على هذه الشبهة: "إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ﷺ، ويرغب إلى الله ﷻ في أن تناله لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب، ولا قائم بكل ما افترض الله ﷻ عليه، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص، فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة. وقال ﷺ: «لا ينجو أحد إلا برحمة الله ﷻ، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله ﷻ برحمته»[٨٣،٨٤].

يقول التفتازاني في الردّ على هذه الشبهة: "إن المراد اجعلنا من أهل الشفاعة على تقدير المعاصي كما في قولنا اجعلنا من أهل المغفرة وأهل التوبة، وتحقيقه أن المتصف بالصفات إذا اختص بكرامة منشأها بعض تلك الصفات دون البعض لم يكن استدعاء أهلية تلك الكرامة إلا استدعاء الصفة التي هي منشأ تلك الكرامة، ألا يرى أن المعالجة وإن لم تكن إلا للمريض، لكن قولك اللهم اجعلني من أهل العلاج ليس طلبًا للمرض بل لقوة المزاج، فكذا ههنا الشفاعة، وإن اختصت بأهل الكبائر لكن منشأها الإيمان وبعض الحسنات التي تصير سببًا لرضا الشفيع عنه وميله إليه. وبهذا، يخرج الجواب عما قالوا أن من حلف بالطلاق أن يعمل ما يجعله أهلًا للشفاعة أنه يؤمر بالطاعات، لا المعاصي"[٨٥].

الدليل الثالث: قول القاضي عبد الجبار: "إن الرسول ﷺ إذا شفع لصاحب الكبيرة فلا يخلو، إما أن يشفع، أو لا. فإن لم يشفع لم يجز؛ لانه يقدح بإكرامه. وإن شفع فيه، لم يجز أيضًا؛ لأنا قد دللنا على أن إثابة من لا يستحق الثواب قبيح، وأن المكلّف لا يدخل الجنة تفضلًا"[٨٦].

المناقشة:

إن قول القاضي عبد الجبار: وإن شفع فيه لم يجز ينبني على أن المكلّف لا يدخل الجنة بفضل الله ﷻ ورحمته، وإنما يدخلها بعمله، وأنه متى عمل عملًا صالحًا وجب على الله ﷻ إدخاله الجنة، وإذا لم يعمل لم يجز أن يدخله الله ﷻ إياها.

وهذا القول باطل لما يلي:

---

[٨٣] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث: ٦٤٦٨.

[٨٤] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٧٩.

[٨٥] سعد الدين التفتازاني، **شرح المقاصد في علم الكلام**، ج٢، ص٢٤٠.

[٨٦] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٨٩.

إما كون الإنسان لا يدخل الجنة بفضل الله ﷻ ورحمته، فيبطله قوله ﷻ: ﴿**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [فاطر:٣٥]. وقوله ﷺ: «لن ينجي أحدكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله ﷻ برحمته»[٨٧]. فإذًا، فإن دخول الإنسان الجنة يكون بفضل وفنٍّ من الله ﷻ ورحمته، وإنما العمل سبب في تفضيل الله ﷻ على عبده بإدخاله الجنة. وأما بطلان الوجوب على الله ﷻ، فلاستحالة موجب فوقه يوجب عليه شيئًا.

وإذا ثبت أن الإنسان يدخل الجنة بفضل الله ﷻ ورحمته، وأنه ﷻ الفعَّال لما يريد، فلا يوجب عليه أحد شيئًا، فلا مانع أن يشفع الله ﷻ نبيه في من شاء من عباده من أهل التوحيد المرتكبين للكبائر لتظاهر الأحاديث بثبوت الشفاعة لهم، وإذا ثبت أن الله ﷻ يشفع نبيه فيهم؛ بطل قولكم، وإن لم يشفع فيه لم يجز، لأن الشفاعة قد ثبتت، فلا مكان لهذا الاحتمال. وعليه فتبطل شبهتكم هذه.

الدليل الرابع: قول القاضي عبد الجبار: "ما قولكم فيمن حلف ليفعل ما يستحق به الشفاعة؟ أليس يلزمه أن يرتكب الكبيرة، ويصير من أهل الفسوق والعصيان"[٨٨].

المناقشة:

يقول الباقلاني[٨٩]: والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

أحدهما: أن نأمره بالتمسك بالإيمان دون فعل الذنوب؛ لأن الشفاعة لا تنال بالذنوب، وإنما تنال بالإيمان دون الذنوب، وهذا مثل أن يشفعوا زيدًا في ذنب صديقه في دار الدنيا إلى من ملك إسقاط ذلك، لا يقال: أنه نال ذلك بالذنب الذي أذنب، وإنما ناله بالصداقة المتقدمة، لا نفس الذنب. ونأمره أيضًا بالطاعة حتى ينال بذلك شفاعة الرسول ﷺ في الزيادة له من البر والنعيم، ونحو ذلك.

---

[٨٧] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث: ٦٤٦٣. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ﷻ، رقم الحديث: ٢٨١٦.

[٨٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٩٣.

[٨٩] أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني القاضي، ولد بالبصرة ونشأ بها، ثم رحل إلى بغداد فقام بها وأخذ عن علمائها حتى أصبح يشار إليه بالبنان، وانتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، له: الإنصاف، التمهيد، وشرح اللمع، والإبانة وغيرها، توفي سنة (٤٠٣هـ). انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج٣، ص١٦٨.

الثاني: أنّا نعارضكم بمثل قولك، فنقول لكم ما تقولون فيمن سمع قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢]، فحلف ليفعلن فعلًا يجب عليه فيه التوبة والاستغفار...فإن قالوا: نأمره بالطاعة وفعل الخير، قلنا لهم: هذا لا يصح، لأن الإنسان لا يجب عليه التوبة والاستغفار من فعل الخير بإجماع المسلمين. وإن قلتم: نأمره بفعل المعاصي والذنوب حى تجب عليه التوبة والاستغفار، فيتوب ويستغفر حتى يتخلص من يمينه، فقد استحللتم ما حرم الله ﷻ وأمرتم بما لا يجوز لمسلم أن يأمر به.

وإن قلتم: لا نأمره بفعل المعصية، ولكن إن ابتلي بشيء من ذلك قلنا له: قد فعلت ما وجب به عليك التوبة والاستغفار، وزوال حكم اليمين. قلنا لكم: نحن أيضًا نقول: لمن حلف ليفعلن فعلًا يجوز أن يشفع له فيما يستحق عليه من العقاب شفاعة الرسول ﷺ. نقول له: تمسك بالطاعة والإيمان، فإن ابتليت بشيء من المعاصي، فقد خرجت من اليمين، ويجوز أن يشفع لك الرسول ﷺ، لا أن نأمره بالمعصية بوجه من الوجوه[٩٠].

يقول أبو منصور البغدادي[٩١] في الردّ على شبهة المعتزلة: "وجوابنا عن هذا السؤال: إن الحالف إن حلف على أن يعمل عملًا تستحق به الشفاعة حانث في يمينه، لأن من نال الشفاعة في الآخرة فإنما ينالها بفضل من الله ﷻ بلا استحقاق، وإن حلف أن يعمل عملًا يصير به من أهل الشفاعة أمرنا بأن يعتقد أصولنا في التوحيد والنبوات وأن يجتنب البدع الضالة..."[٩٢].

يقول يحيى بن أبي الخير اليماني[٩٣] في الجواب على شبهتهم: "إنّا لا نأمره بعمل المعصية، وإنما نأمره بالإرزاء بهذا السائل، لأنه أورد سؤاله

---

[٩٠] انظر: أبي بكر بن الطيب الباقلاني، **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، ص٢٣٩-٢٤٠، بتصرف.

[٩١] أبو منصور عبد القاهر بن محمد البغدادي الفقيه الشافعي الأصولي الأديب؛ كان ماهرًا في فنون عديدة خصوصًا علم الحساب، فإنه كان متقنًا له وله فيه تواليف نافعة، منها كتاب "التكملة"، وكان عارفًا بالفرائض والنحو، وله أشعار، وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في "سياق تاريخ نيسابور" ، وقال: "ورد مع أبيه نيسابور، وكان ذا مال وثروة وأنفقه على أهل العلم والحديث ولم يكتسب بعلمه مالًا، وصنف في العلوم وأربى على أقرانه في الفنون ودرس في سبعة عشر فنًا، وكان قد تفقه على أبي إسحاق الإسفرايني وجلس بعده للإملاء في مكانه بمسجد عقيل فأملى سنين، واختلف إليه الأئمة فقرأوا عليه، مثل ناصر المروزي وزين الإسلام القشيري وغيرهما". وتوفي سنة (٤٢٩هـ) بمدينة إسفراين، ودفن إلى جانب شيخه الأستاذ أبي إسحاق، رحمهما الله ﷻ. انظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٠٣.

[٩٢] فخر الدين الرازي، **الأربعين في أصول الدين**، ص٢٤٥.

[٩٣] يحيى بن أبي الخير بن سالم بن سعيد ابن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني، اليماني، الشافعي، ولد سنة (٤٨٩هـ). فقيه، أصولي، متكلم، نحوي. تفقه على جماعات، منهم: زيد البقاعي، وتوفي سنة (٤٨٧هـ). انظر: عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**،ج١٣، ص١٩٦.

هذا على سبيل الشناعة لجهله بالأخبار الواردة في الشفاعة، ونأمره أن يتعلم الردّ على القدرية والاستقامة على الإيمان، لأن ذلك طاعة لله ﷻ، والشفاعة إنما هي للمؤمنين على ما ابتلوا من المعاصي، ولا يخلوا أحد من المعاصي[٩٤].

ثالثا: خلود العصاة وأصحاب الكبائر في النار

ذهب الإمام الزمخشري وأصحابه المعتزلة إلى تخليد العصاة وأصحاب الكبائر في النار، والذي حمل على هذا الاعتقاد الباطل زعمهم بأن المؤمن إذا خرج من الدنيا بكبيرة من الكبائر دون أن يتوب منها فإنه يستحق الخلود في النار، ولا يخرج منها بعد دخولها، لكن عقابه يكون أخف من عقاب الكافر[٩٥]. وهذا ما يعرف بمسألة الوعد والوعيد عند المعتزلة. وأيضًا أن آيات الوعيد تناول الفساق من المسلمين كما تناول الكفرة[٩٦]. واستدلوا على ذلك بما يلي:

الأدلة النقلية

الدليل الأول: قوله ﷻ: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]. قال الإمام الزمخشري: "**﴿بَلَى﴾**: إثبات لما بعد حرف النفي، وهو قوله: **﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾**: أي بلى تمسكم أبدًا، بدليل قوله: **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**: **﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾**: من السيئات، يعني كبيرة من الكبائر، **﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾** تلك واستولت عليه، كما يحيط العدو ولم يتفص عنها بالتوبة"[٩٧].

ويقول القاضي عبد الجبار في بيان وجه الدلالة بالآية: "دلت الآية على أن من غلبت كبائره على طاعته، لأن هذا هو المعقول من الإحاطة في باب الخطايا؛ لأن ما سواه من الإحاطة التي تستعمل في الأجسام يستحيل فيها، هو من أهل النار مخلد فيها"[٩٨].

---

[٩٤] يحيى بن أبي الخير اليماني، **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، (الرياض: أضواء السلف، د.ط، ١٩٩٩م) ج٣، ص٧٠٥.

[٩٥] محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، (بيروت: دار المعرفة، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ج١، ص٥٧-٥٨.

[٩٦] انظر: جعفر الصبحاني، **مفاهيم القرآن**، (قم: مؤسسة الإمام الصادق، د.ط، ١٤٢٠هـ) ج٨، ص٣٠٤.

[٩٧] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٢٨٩.

[٩٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج١، ص٩٧.

المناقشة:

الخلود في لغة العرب هو المكث الطويل، كما قال الراغب الأصفهاني: "تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأثافي: خوالد، وذلك لطول مكثها، لا لدوام بقائها"[٩٩]. وهو نوعان: خلود أمدي إلى أجل وهو الذي توعّد الله ﷻ به أهل الكبائر، وخلود أبدي وهو الذي توعّد الله ﷻ به أهل الكفار والشرك[١٠٠].

وبناء على هذا فإن الطبري نظر إلى قوله ﷻ: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ على أنها خصه باليهود، على ما صدر منهم من كذب على الله ﷻ حين قالوا: ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**﴾ وإخبار منه لهم أنه معذّب من أشرك ومن كفر به وبرسله، وأحاطت به ذنوبه، فمخلده في النار، فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان به وبرسوله، وأهل الطاعة له، والقائمون بحدوده كما حدثنا محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ أي: من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"[١٠١]. واستشهد ابن كثير بقوله ﷻ ردًّا على اليهود: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤]. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به،

---

[٩٩] أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٢٩٢.

[١٠٠] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، **شرح العقيدة الطحاوية والمسمى ب (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل)**، شرحها صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، (المملكة العربية السعودية: دار المودة، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١١م) ج٢، ص٦٢٩.

[١٠١] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢، ص١٧٨.

حتى يحيط به كفره فما له من حسنة. وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك[١٠٢].

يقول القرطبي: السيئة: الشرك. قال ابن جريج قلت لعطاء: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾. قال: الشرك، ثم تلا قوله ﷻ: ﴿**وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**﴾ [النمل:٩٠][١٠٣].

ومما يؤيد قول كل من الطبري والقرطبي وغيرهما من المفسرين: في أن المراد بالسيئة هنا: الشرك. هو قوله ﷻ: ﴿**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله: ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذًا، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته. ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلابدّ أن يكون فيما احتج به حجة عليه"[١٠٤].

ويقال للمعتزلة إن أصحاب الكبائر من أمة محمد ﷺ لهم من الحسنات من الإيمان والطاعات، مما يمتنع معه أن تحيط به سيئاته، وإنما الآية في الكافر الذي ليس في قلبه ذرة من إيمان[١٠٥].

وبهذا، يتبيّن أن لا حجة للمعتزلة في الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة من أمة محمد ﷺ في النار؛ لأن الإحاطة لا تصح إلا في شأن الكافر؛ لأن غيره إن لم يكن له سوى تصديق القلب بالإيمان والإقرار به لسانه، فلم تحط به خطيئته، لكون قلبه ولسانه منزهًا عن الخطيئة. وفي الحقيقة توجد آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى، وفيها قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ [البقرة:١٦٠-١٦١].

---

[١٠٢] انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص٢٥٦، بتصرف يسير.

[١٠٣] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٢٢٦.

[١٠٤] عبد الرحمن بن ناصر السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، (المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٦هـ) ص٤٩.

[١٠٥] انظر: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، **كتاب المواقف**، ص٣٧٧.

الدليل الثاني: قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزحرف:٧٤-٧٥]. قال الإمام الزمخشري: "﴿**لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ**﴾ لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلًا ونقص حرّها. والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت في نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدًا: لا يرى ولا يرى"[١٠٦].

ووجه استدلال المعتزلة بالآيتين: قد بيّنه القاضي عبد الجبار بقوله: "إن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعًا، فيجب أن يكونا مرادين بالآية، معنييّن بالنار؛ لأنه ﷻ لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبيّنه دل على أنه أرادهما جميعًا. ثم قال: الكلام في أن اسم المجرم يتناول الكافر والفاسق جميعًا ظاهر في اللغة والشرع جميعًا. أما من جهة اللغة؛ فلأنهم لا يفرقون بين قولهم مذنب، وبين قولهم مجرم، فكما أن المذنب شامل لهما جميعًا، فكذلك المجرم. وأما من جهة الشرع: فلأن أهل الشرع لا يفرقون بين قولهم مجرم لزناه، وبين قولهم فاسق لزناه"[١٠٧].

ويقول في موضع آخر بعد سياق هذه الآية: "الآية تدل على أن الوعيد بالخلود، لأنها لم تخص مجرمًا من مجرم، وبينت أنهم خالدون في النار، والخلود هو الدوام الذي لا انقطاع له"[١٠٨].

المناقشة:

المجرم لغةً: المنقطع عن الحق إلى الباطل[١٠٩]، وكل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر[١١٠].

أ- إن المقصود بالمجرمين في الآية الأولى: هم الكافرون. وهذا مذهب مفسريْ أهل السنة.

---

[١٠٦] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٥، ص٤٥٦.

[١٠٧] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٦٠-٦٦١.

[١٠٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٦٠٩.

[١٠٩] انظر: فخر الدين الطريحي، **مجمع البحرين**، (طهران: مؤسسة البعثة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٠٦) ص٢٨٧.

[١١٠] انظر: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، **معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج١، ص١٢٨٤.

يقول الطبري وغيره عند تفسير هذه الآية: "﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ**﴾ وهم الذين اجترموا في الدنيا الكفر بالله ﷻ، فاجترموا به فى الآخرة ﴿**فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾"[١١١].

وأيضًا يؤيد كون المراد بالمجرمين في الآية هم الكافرون: ما ذكره الرازي في معرض الردّ على استدلال المعتزلة بهذه الآية حيث قال: "إن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد ﴿**الْمُجْرِمِينَ**﴾ الكافرين. أما ما قبل هذه الآية فقوله ﷻ: ﴿**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ [الزخرف:٦٨]. هذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله ﷻ وكانوا مسلمين فإنهم يدخلون تحت قوله ﷻ: ﴿**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾. والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله ﷻ وبآياته وأسلم، فوجب أن يكون داخلًا تحت ذلك الوعد، ووجب أن يكون خارجًا عن هذا الوعيد. وأما ما بعد هذه الآية فقوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف:٧٨]. والمراد بالحق هنا؛ إما الإسلام، وإما القرآن، والرجل المسلم لا يكره الإسلام، ولا القرآن، فثبت أن ما قبل هذه الآية يقصد قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ [الزخرف:٧٤]، يدل على أن المراد من المجرمين الكفار"[١١٢].

يقول الشوكاني[١١٣]: قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ**﴾ أي أهل الإجرام الكفرية كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله ﷻ قبل هذا"[١١٤]. يقصد الشوكاني قوله ﷻ: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [الزخرف:٧٢-٧٣].

---

[١١١] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٦٤٧، وانظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، ج٧، ص٣٢٩. ومحمد بن محمد العمادي أبو السعود، **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٥، ص٤٩.

[١١٢] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٧، ص٢٧.

[١١٣] محمد بن علي محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، ولد يوم الإثنين سنة (١١٧٣هـ) في بلده هجرة شوكان، نشأ بصنعاء، وأخذ في طلب العلم، وفرغ نفسه للطلب وجد واجتهد، وتوفي ليلة الأربعاء سنة (١٢٥٠هـ). انظر: محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤٠٣هـ) ج١، ص٤.

[١١٤] محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ج٤، ص٨٠٤.

يقول الآلوسي[١١٥]: "فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج"[١١٦].

فبهذا، يتبيّن أن كلا من هاتين الآيتين وما قبلهما وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين: الكفار. والكفار ليس محل نزاع في أنهم من أهل النار مخلدين فيها؛ كما روي الصدوق في توحيده بسنده عن ابن عمير، قال: سمعت موسى بن جعفر يقول: «لا يخلد الله ﷻ في النار إلا أهل الكفر والجحود، وأهل الضلال والشرك»[١١٧]، وبذلك يبطل استدلال المعتزلة بالآيتين على خلود صاحب الكبيرة في النار.

ب- على فرض التسليم بعموم الآية، وأنها ليست خاصة بالكفار، فإنه ورد ما يبيّن أنها مخصصة بآيات العفو والتوبة، والآيات الدالة على خروج عصاة المؤمنين من النار، كقوله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الشورى:٢٥]. وكقوله ﷻ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ [الشورى:٣٠]. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله ﷻ: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»"[١١٨].

وأيضًا فالآيتان معارضة بنصوص الوعد لمن يعمل الصالحات وهو مؤمن، كقوله ﷻ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:٧]. وكقوله ﷻ: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:١٦٠]. وترجيح عمومات الوعد أولى؛ لأنها أدخل في باب الكرم الإلهي من عمومات الوعيد، ولأن رحمة الله ﷻ سابقة على غضبه، بل تغلب غضبه، فكان ترجيح عمومات الوعد أولى[١١٩].

---

[١١٥] مفتى بغداد شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، له كتاب في التفسير من ثلاثين جزءًا "روح المعاني". توفي سنة (١٢٧٠هـ). انظر: موقع وزارة الأوقاف المصرية، **موسوعة الأعلام**، ج١، ص٤٤.

[١١٦] محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، **روح المعاني**، ج٢٥، ص١٠٢.

[١١٧] خرّجه الشيخ محمد باقر المجلسي في كتابه، انظر: **بحار الأنوار**، كتاب العدل والمعاد، باب من يخلد في النار ومن يخرج منها، رقم الحديث: ١.

[١١٨] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان بالأعمال، رقم الحديث: ٢٢. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم الحديث: ١٨٤.

[١١٩] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣، ص١٧١.

لقد جاءت آية كريمة تحدّد لنا المقصود بالمجرمين، وذلك في سورة الأعراف كما قال ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف:٤٠]. وبذلك استدلالهم على أن المقصود بالمجرمين في الآية هم أصحاب الكبائر غير صحيح وذلك فقد ذكر المفسرون أن المجرمين هم الكافرون.

الدليل الثالث: قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٤-١٦]. قال الإمام الزمخشري: "فإن قلتَ لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِيْ نَعِيْمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ وغيره من الآي الكثيرة. قلتُ: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت، لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب، وأنه هدى للمتقين وسيقت الثانية، لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف. فإن قلتَ: هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين، فأما إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم، كان مثل تلك الآي المتلوة. قلتُ: قد مر لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف، وأنه مبني على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين، وتابع له في المعنى، وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه"[١٢٠].

ووجه الاستدلال بالآية الكريمة: يقول القاضي عبد الجبار: "الآية تدل على أن الفاجر وإن كان من أهل الصلاة، فهو من أهل الوعيد ومن أهل النار، وأنه إذا لم يتب ومات على ذلك؛ فهو في الجحيم لا يغيب عنها، وذلك يدل على الخلود؛ لأنهم إذ لم يغيبوا عنها ولا لحقهم موت وقتًا، فليس إلا العذاب الدائم"[١٢١]. ويقول الرازي: "أن القاطعين بوعيد أصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: صاحب الكبيرة فاجر، والفجار كلهم في الجحيم، لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الاستغراق"[١٢٢].

---

[١٢٠] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص١٦٢.
[١٢١] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٦٨٢.
[١٢٢] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣١، ص٨٥.

المناقشة:

من معاني الفجور أنه هيئة حاصلة للنفس بها يباشر أمورًا على خلاف الشرع والمروءة[١٢٣].

أ- فإن المراد بالفجار في الآية: هم الكفار، وهذا ما ذهب إليه المفسرون.

يقول الطبري عند تفسير هذه الآية: "يقول الله ﷻ ذكره: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ**﴾ الذين كفروا بربهم...وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل"[١٢٤].

ويقول ابن الجوزي[١٢٥]: قوله ﷻ: ﴿**وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ**﴾ يدل على تخليد الكفار"[١٢٦]. ومما يدل على أن المراد بالفجار هم الكفار لا غيرهم قوله ﷻ في حق الكفار: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**﴾ [عبس:٤٢].

يقول الرازي في معرض ردّه على المعتزلة الذين يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النار لكونهم من الفجار: "إن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة، والمسألة قطعية. والتمسك بالدليل الظني في المطلوب القطعي غير جائز، بل ههنا ما يدل على قولنا: لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام في المعهود السابق شائع في اللغة، فيحتمل أن يكون اللفظ ههنا عائدًا إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين، والكلام في ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء، سلمنا أن العموم يفيد القطع، لكن لا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر، والدليل عليه قوله ﷻ في حق الكفار: ﴿**أولئك هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**﴾، فلا يخلو إما أن يكون المراد ﴿**أولئك هُمُ الْكَفَرَةُ**﴾ الذين يكونون من جنس الفجرة، أو المراد ﴿**أولئك هُمُ الْكَفَرَةُ**﴾ وهم ﴿**الْفَجَرَةُ**﴾، والأول باطل، لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع، فتقييد الكافر بالكافر الذي يكون من جنس الفجرة عبث، وإذا بطل هذا القسم بقي الثاني، وذلك يفيد الحصر، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجرة لا غيرهم، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق"[١٢٧].

---

[١٢٣] محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص٢١٢.

[١٢٤] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٤، ص١٨٢.

[١٢٥] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ)، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص٣١٦.

[١٢٦] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، ج٩، ص٤٩.

[١٢٧] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣١، ص٨٥.

وبهذا، يتبيّن أنه ليست في الآية دلالة على خلود صاحب الكبيرة في النار، لأنها في الفاجر وهو الكافر. فالفرق كبير بينهما إذ أن صاحب الكبيرة يوحّد الله ﷻ ولكن الكافر منكر لوجوده ولا يعترف بملائكته وكتبه وأنبيائه.

ب- لو سلمنا جدلًا أن الفاجر يدخل تحته الكافر والمسلم، لكن قوله ﷻ: ﴿**وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ**﴾ [الانفطار:١٦]. معناه: أن مجموع الفجار لا يكون غائبين، ونحن نقول بموجبه، فإن أحد نوعي الفجار وهم الكفار لا يغيبون، وإذا كان كذلك؛ ثبت أن الفجار بأُسرهم لا يغيبون، ويكفي فيه ألا يغيب الكفار، فلا حاجة في صدقة إلى أن لا يغيب المسلمون. وإضافةً إلى ذلك، فإن الآية الكريمة معارضة بمجموعة من النصوص الدالة على الوعد بالثواب والتي تتضمن عفو الله ﷻ والتوبة عن عباده مثل: قوله ﷻ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨]. وقوله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الشورى:٢٥]. وقوله ﷻ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾.

فانطلاقًا من هذه الحجج، فالترجيح يقع مع الآيات المثبتة للشفاعة؛ لأن دليل المعتزلة لابدّ أن يتناول جميع الفجار في جميع الأوقات؛ وإلا لم يحصل مقصودهم، فهو عام. والأدلة الدالة على العفو يكفي في صحتها تناولها لبعض الفجار في بعض الأوقات، فهي خاصة، والخاص مقدم على العام[١٢٨]. والآية التي يستدل بها المعتزلة وجب تخصيصها بالآيات الدالة على اختصاص العذاب المؤبّد بالكفار، نحو قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى**﴾ [طه:٤٨]، وقوله: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [النحل:٢٧][١٢٩]. وبذلك يبطل استدلال المعتزلة بالآية على خلود صاحب الكبيرة في النار.

الدليل الرابع: قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]. قال الإمام الزمخشري: "﴿**ظُلْمًا**﴾ ظالمين: أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته"[١٣٠].

---

[١٢٨] المرجع نفسه، ج٣١، ص٨٦، بتصرف.
[١٢٩] عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، **كتاب المواقف**، ص٣٧٧-٣٧٨.
[١٣٠] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص٣١.

ووجه الاستدلال بالآية يقول القاضي عبد الجبار: "الآية تدل على أن الفاسق من أهل الصلاة متوعّد بالنار، وأنه سيصلاها لا محالة ما لم يتب، لأن الذي يأكل أموال اليتامى ليس هو الكافر، فلا يصح حمله عليه. ويجب كونه عامًا في كل من هذا حاله، والأغلب ممن يوصف بذلك أن يكون من أهل الصلاة، وأقل أحواله أن يدخل الجميع فيه، فيجب أن يقال بعمومه"[١٣١].

المناقشة:

لقد ردّ القرطبي استدلال المعتزلة بهذه الآية على تخليد صاحب الكبيرة في النار، فقال عند تفسير هذه الآية: "ولا حجة فيها لمن يكفر بالذنوب، الذي يعتقده أهل السنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة، فيصلى ثم يحترق ويموت، بخلاف أهل الشقاء فإنهم لا يموتون ولا يحيون. لما روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، قال: قال ﷺ: «إما أهل النار الذين هم أهلها، فيها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسًا أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم، فأماتهم الله ﷻ إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنها الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»[١٣٢] ساقط بالمشيئة عن بعضهم، لقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨]. فالآية تدل على أن الله ﷻ يغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده"[١٣٣].

يتبيّن من ردّ القرطبي أن صاحب الكبيرة إما أن يعذب مدة ثم يخرج من النار، ويدخل الجنة، أو يعفى عنه بمشيئة الله ﷻ، ولكنه في جميع الحالات لا يخلد في النار. كما روي الحسين بن سعيد الأهوازي، عن عمر بن أبان، قال: سمعت عبدًا صالحًا يقول في الجهمنيين: «إنهم يدخلون النار بذنوبهم ويخرجون بعفو الله ﷻ»[١٣٤]، وبهذا يبطل استدلال المعتزله بهذه الآية.

---

[١٣١] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج١، ص١٧٨.

[١٣٢] أخرجه الإمام الترمذي في سننه، انظر: **سنن الترمذي**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ١١ منه، رقم الحديث: ٢٤٣٥. **قال: أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.** وأخرجه الإمام أبو داود في سننه، انظر: **سنن أبو داود**، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم الحديث: ٤٧٣٩.

[١٣٣] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٦، ص٩٢.

[١٣٤] خرّجه الشيخ محمد باقر المجلسي في كتابه، انظر: **بحار الأنوار**، كتاب العدل والمعاد، باب من يخلد في النار ومن يخرج منها، رقم الحديث: ٣٢.

الدليل الخامس: قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]. قال الإمام الزمخشري: "فإن قلتَ: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلتُ: ما أبين الدليل وهو تناول قوله: أي قاتل كان من مسلم أو كافر تائب أو غير تائب إلا أن التائب أخرجه الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله"[١٣٥].

ويقول القاضي عبد الجبار: "ووجه الاستدلال هو أنه ﷻ يبيّن أن من قتل مؤمنًا عمدًا جازاه الله ﷻ جهنم خالدًا فيها وعاقبه وغضب عليه ولعنه، وفي ذلك ما قلناه"[١٣٦]. ويقول في موضع آخر: "وقوله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**﴾ [النساء:٩٣]، يدل على أن قتل المؤمن علة وجه التعمد يستحق به الخلود في النار...إلى أن قال: ولا يمكن حمل الكلام في الآية على الكافر إذ قتل متعمّدًا، من وجهين: الأول: أنه عام؛ لأن لفظة ﴿**مَنْ**﴾ إذا وقعت في المجازاة كانت شائعة في كل عاقل. الثاني: أنه ﷻ جعل ذلك جزاء لهذا الفعل المخصوص، ولا يعتبر بمحال الفاعلين، بل يجب من أي فاعل كان، أن يكون هذا الجزاء لازمًا له"[١٣٧].

المناقشة:

أ- أن الخلود في الآية لمستحل القتل، وهو كافر إجماعًا، والكافر مخلد. يقول الطبري عند تفسير هذه الآية ﴿**مُّتَعَمِّدًا**﴾أي مستحلًا قتله[١٣٨]. ويقول القرطبي حاكيًا ما روي عن ابن عباس في معنى قوله ﷻ: ﴿**مُّتَعَمِّدًا**﴾...أنه قال: متعمّدًا أي مستحلًا لقتله، فهذا يُئوّل إلى الكفر إجماعًا، والكافر مخلّد"[١٣٩].

وعلى هذا، فالآية لا تناول صاحب الكبيرة لأنها في الكفر، وصاحب الكبيرة لم يخرج من الإيمان إلى الكفر. يقول الطبري: "وقوله ﷻ: ﴿**فَجَزَاؤُه**﴾ أي: يستحق ما ذكره الله ﷻ من العقاب إن شاء أن يجازيه"[١٤٠]. وقال أبو السعود بمثل هذا، واستدل بما روي عن ابن عباس عند تفسير هذه

---

[١٣٥] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص١٣١.
[١٣٦] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٥٩.
[١٣٧] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج١، ص٢٠١-٢٠٢. و**شرح الأصول الخمسة**، ص٦٥٩.
[١٣٨] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٧، ص٣٤٠.
[١٣٩] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٧، ص٤٣.
[١٤٠] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٧، ص٣٤٠.

الآية حيث قال: ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**﴾ أي: هي جزاؤه، فإن شاء عذبه، وإن شاء غفر له"[١٤١]. ثم قال: "والتحقيق أن ما ورد في الآية إنما هو إخبار منه ﷻ بأن جزاؤه ذلك، لا بأنه يجزيه بذلك، كيف لا؟ وقد قال ﷻ: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠]. ولو كان هذا إخبار بأنه ﷻ يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله ﷻ: ﴿**وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**﴾ [المائدة:١٥][١٤٢].

يقول أبو السعود[١٤٣] بعد عرضه للآية: "ولا دليل في الآية للمعتزلة في قولهم بخلود عصاة المؤمنين في النار لما قيل أنها في حق المستحل، كما هو رأي عكرمة وإضرابه، بدليل أنها نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني المرتد"[١٤٤].

وإذا كان الجزاء في الآية ليس المقصود وقوعه، وأنما الإخبار به، بطل قول المعتزلة: "أنه ﷻ جعل ذلك جزاء لهذا الفعل المخصوص، فمتى وقع الفعل، وقع الجزاء"[١٤٥].

ب- على التسليم بأن الآية ليست خاصة في الكافر، والجزاء فيها المقصود به وقوعه، فإنما مخصصة بالنصوص الدالة على العفو بمشيئته ﷻ، والتوبة، وأحاديث الشفاعة الدالة على خروج الموحّدين من النار.

يقول القرطبي: الآية مخصوصة بآيات وأحاديث، فمن الآيات، قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود:١١٤]. وقوله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الشورى:٢٥]، وقوله ﷻ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨]. وتوضيح ذلك؛ أنه ليس الأخذ بظاهر هذه الآية أولى من الأخذ بظاهر هذه الآيات، والأخذ بالظاهرين متناقض، فلابدّ من التخصيص. ثم إن الجمع بين آية الفرقان، وهي قوله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**

---

[١٤١] انظر: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٢، ص٢١٧، بتصرف.

[١٤٢] المرجع نفسه، بتصرف.

[١٤٣] محمد بن محمد بن مصطفى العمادي من علماء الترك المستعمرين، ولد بقسطنطينية، ودرس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينة فالربع وأضيف إليه الإفتاء. له مؤلفات منها التفسير المشهور. توفي سنة (٩٨٢هـ). انظر: موقع وزارة الأوقاف المصرية، **موسوعة الأعلام**، ج١، ص٢٦٨.

[١٤٤] محمد بن محمد العمادي أبو السعود، **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٢، ص٢١٧.

[١٤٥] انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٥٩٢.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، وبين هذه الآية ممكن، فلا نسخ ولا تعارض؛ وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على مقيد آية الفرقان، فيكون معناه: فجزاؤه كذا إلا من تاب؛ لا سيما وقد اتّحد الموجب وهو القتل، والموجب وهو التوعد بالعقاب. وأما الأخبار المخصصة لعموم الآية فكثيرة منها: حديث عبادة بن الصامت، أنه ﷺ قال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله ﷻ شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله ﷻ إلا بالحق، فمن وفي منكم فأجره على الله ﷻ ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله ﷻ عليه فأمره إلى الله ﷻ، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه»[١٤٦]. وكحديث «أبي هريرة ﷺ عن النبي في الرجل الذي قتل مائة نفس»[١٤٧]، ثم أن المعتزلة أجمعوا معنا في الرجل يشهد عليه بالقتل، ويقرّ بأنه قتل، ويأتي السلطان، فيقيم عليه الحد ويقتل قودًا، فهذا غير نافذ عليه الوعيد في الآخرة إجماعًا على مقتضى حديث عبادة، فقد انكسر عليهم ما تعلقوا به من عموم قوله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّدًا**﴾ [النساء:٩٣]. ودخله التخصيص بما ذكر[١٤٨].

من كلام القرطبي؛ يظهر أن الآية مخصوصة بالنصوص الدالة على العفو والتوبة؛ وعليه، فيبطل استدلال المعتزلة بهذه الآية على تخليد صاحب الكبيرة في النار. وعكسه كذلك القول أن القاتل إذا قتل إنسانًا لإيمانه أي قتله لأنه مؤمن فهو بذلك يستحق الخلود في النار ويكون كافرًا بذلك.

الأدلة العقلية

الدليل الأول: عدم خلف وعيد الله ﷻ بالعقاب

ذكر عبد الرحمن الإيجي أن المعتزلة قالوا: "إن الله ﷻ أوعد بالعقاب وأخبر به، فلو لم يعاقب، لزم الخلف في وعيده والكذب في خسره، وهو محال"[١٤٩].

---

[١٤٦] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، الباب العاشر، رقم الحديث: ١٨. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم الحديث: ١٧٠٩.

[١٤٧] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب التوبة باب قبول التوبة وإن كثر قتله، رقم الحديث: ٢٧٦٦.

[١٤٨] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٧، ص٤٧.

[١٤٩] عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، **كتاب المواقف**، ص٣٧٧.

يقول القاضي عبد الجبار: إن الله ﷻ توعد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما توعد عليه، ولا يجوز عليه الخلف والكذب[١٥٠]. ويستدل على عدم جواز الخلف في الوعيد بقوله ﷻ قال: ﴿**لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٨-٢٩]. ثم قال: "الآية تدل على أن الوعيد الوارد عن الله ﷻ ذلك لا يتبدل ولا يتغير...وأنه لا يجوز فيه الخلف، لأن ذلك يقتضي التبديل، وقد أبى الله ﷻ ذلك في وعيده"[١٥١]. كما يستدل القاضي عبد الجبار أيضًا على عدم جواز الخلف في الوعيد "بأنه لو جاز الخلف في الوعيد لجاز في الوعد، لأن الطريق في الموضوعين واحدة"[١٥٢].

المناقشة:

يقال للمعتزلة: الوعد إما أن يتوجه للكافر والمشرك أو المعاصي؛ فأما الوعيد الذي توعد الله ﷻ به الكافرين: فإنهم سينالونه حتمًا إذا ماتوا على كفرهم، كما دل على ذلك القرآن الكريم من مثل قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨].

وأما الوعيد الذي توعد به الله ﷻ به العصاة: فإما أن توبوا أو لا. إن تابوا تاب الله ﷻ عليهم وغفر لهم؛ وبذلك يسقط الوعيد عنهم، كما قال ﷻ: ﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ [الفرقان:٧٠]. وأما إذا مات العصاة ولم يتب الله ﷻ عليهم؛ فإنهم تحت مشيئة الله ﷻ، إن شاء عذبه على قدر ذنوبهم بمقتضى عدل ثم أدخلهم الجنة، فلا يخلدوا في النار، بدليل حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله ﷻ: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[١٥٣]. ففي هذا الحديث دلالة على أن معه إيمان لا يبقى في النار خالدًا؛ بل يخرج منها، وصاحب الكبيرة معه إيمان، فإن شاء الله ﷻ عفا عنه بمقتضى عفوه ورحمته، قال ﷻ:

---

[١٥٠] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص١٣٦.

[١٥١] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **متشابه القرآن**، ج٢، ص٦٢٦.

[١٥٢] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص١٣٦.

[١٥٣] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، رقم الحديث: ١٥.

﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨]. وفي ذلك ردّ على المعتزلة في قولهم: إن الله ﷻ يخلد العاصي في النار إذا لم يتب[١٥٤].

يقول أبو عثمان المازني[١٥٥]: "وفي الحديث ردّ على المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة لأن النبي ﷺ أخبر أنه تحت المشيئة ولم يقل: لابدّ من تعذيبه"[١٥٦].

ولو سلمنا بأن الخلف في الوعيد يعتبر كذبًا، فإنه من الله ﷻ لا يستلزم الكذب، لما يلي:

أ- أن الوعيد مشروط بالشرائط مثل عدم العفو، فلا يلزم منه الكذب، فمحصل آيات الوعيد أنّا نعذبهم إن لم نعف عنهم، ولكن عفونا عنهم، فما نعذبهم، وليس في هذا خلف وعيد حتى يلزم منه الكذب.

ب- أن معنى آيات الوعيد: إنشاء الوعيد؛ لا إخبار به، فهي لا تتصف بالصدق والكذب، يقول العلماء: إخلاف الوعيد فضل وكرم، وأما إخلاف الوعد فكذب. ولهذا الله ﷻ؟ ﴿**لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ [الروم:٦] وَعْد الله ﷻ مفعول لابدّ منه، ما وعد به عباده فلابدّ منه. أما وعيده، فإنه قد يتخلف في حق المعين بفضل منه وكرم[١٥٧].

وأما استدلال القاضي عبد الجبار المعتزلي ومن معه بقوله ﷻ: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَمٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٩] على أن الله ﷻ لا يخلف وعيده. فالجواب: لأن الآية تدل على أن الله ﷻ لا يخلف وعيده في الكافر؛ بدليل الآيات التي قبلها. وبدليل النصوص الدالة على أن الله ﷻ يغفر لمن يشاء من العصاة. قال ﷻ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨]. وذلك جمعًا بين الآيات.

وأما قولهم: "أنه لو جاز الخلف في الوعيد؛ لجاز في الوعد"[١٥٨]. فقول فاسد؛ لأن الخلف في الوعد بخل ولؤم، والله ﷻ أكرم الأكرمين، والخلف في الوعيد كرم وجود، وهو من صفاته ﷻ[١٥٩].

---

[١٥٤] عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، **فتح الباري**، تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، (السعودية-الدمام: دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٢هـ) ج١، ص٧٥.

[١٥٥] بكر بن محمد بن حبيب بن بقية، أبو عثمان المازني، من مازن شيبان: أحد الأئمة في النحو، من أهل البصرة، البصرة، ووفاته فيها. له تصانيف، منها كتاب ما تلحن فيه العامة، والالف واللام، والتصريف، والعروض، والديباج. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٢، ص٦٩.

[١٥٦] ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج١، ص٦٨.

[١٥٧] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، **شرح العقيدة الطحاوية والمسمى ب (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل)**، ج٢، ص١١٤٩.

[١٥٨] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص١٣٦.

يقول ابن القيّم[١٦٠]: "إخلاف الوعيد لا يذمّ، بل يمدح، والله ﷻ يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز خلف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه، فإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد حق عليه أوجبه على نفسه، والله ﷻ لا يخلف الميعاد"[١٦١]. والرأي الذي ذكره ابن القيم في غاية الوجاهة والرجاحة إذ أنك حينما تهدّد إنسانًا بالعقاب ثم تُلغى ذلك العقاب وتزيل عنه العقوبة فهذا يدل على كرمك وقدرتك وحبك للعفو. وهذا ما يمكن نهجه عن الله ﷻ إذ لو أراد أن يعاقب كل إنسان على خطاياه بالعدل لما بقي أحدٌ من غير عقاب، ولكنه تعامل مع عباده بالرحمة والعفو والمغفرة.

الدليل الثاني: المؤمن العاصي لا يستحق العفو الإلهي يوم القيامة

يقول القاضي عبد الجبار: "العاصي لا يخلو حاله من أحد أمرين؛ إما أن يعفى عنه، أو لا يعفى عنه. فإن لم يعف عنه، فقد بقى في النار خالدًا، وهو الذي نقوله. وإن عفى عنه، فلا يخلو؛ إما أن يدخل الجنة أو لا. فإن لم يدخل الجنة لا يصح، لأنه لا دار بين النار وبين الجنة، فإذا لم يكن في النار، وجب أن يكون في الجنة لا محالة، وإذا دخل الجنة، فلا يخلو: إما أن يدخلها مثابًا أو متفضلًا عليه، لا يجوز إن يدخل الجنة متفضلًا عليه، لأن الأمة اتفقت على أن المكلّف إذا دخل الجنة، فلابدّ من أن يكون حاله متميّزًا على حال الولدان المخلدين، وعن حال الأطفال والمجانين، ولا يجوز أن يدخل الجنة مثابًا، لأنه غير مستحق، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح، والله ﷻ لا يفعل القبيح"[١٦٢].

المناقشة:

هذه الشبهة باطلة، ولا تدل على تخليد الفاسق في النار، وبيان ذلك أن الفاسق في حال العفو عنه يدخل الجنة تفضلًا من الله ﷻ، بدليل قوله ﷻ: ﴿**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا**

---

[١٥٩] انظر: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ج١، ٣٩٦.

[١٦٠] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى، أحد كبار العلماء، مولده سنة (٦٩٠هـ)، ووفاته في دمشق سنة (٧٥١هـ). تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، ألف تصانيف كثيرة منها أعلام الموقعبن الطرق الحكميه فى السياسة الشرعيه وغيرها. انظر: موقع وزارة الأوقاف المصرية، **موسوعة الأعلام**، ج١، ص٤٥٠.

[١٦١] انظر: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج١، ٣٩٦.

[١٦٢] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٦٦.

لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥]. ولما روي في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «لن ينجي أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله ﷻ برحمته»[١٦٣].

ففي هذه الآية والحديث: دلالة على أن الله ﷻ يدخل من شاء من عباده الجنة بفضله ﷻ، وعليه فإنه يبطل قولكم: "ولا يجوز أن يدخل الجنة متفضلًا عليه"[١٦٤]. إذن، فالفاسق في حالة العفو عنه يدخل الجنة بفضل الله ﷻ ورحمته.

أما في حالة عدم العفو عنه، فإن الله ﷻ يعذبه على قدر ذنبه، ثم يدخل الجنة، فلا يخلد في النار؛ بدليل قوله ﷻ: ﴿**مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا**﴾ [الزلزلة:٧]. واحتمال رؤية العامل مثقال ذرة من خير ما عمله قبل دخوله النار، أي: بأن يدخل الجنة جزاء لما عمله من الخير ثم يخرج منها ويدخل النار عقابًا لما عمله من الشر، يبطله قوله ﷻ في شأن أهل الجنة: ﴿**لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ**﴾ [الحجر:٤٨]. فلم يبق لرؤيته موضع إلا بعد الخروج من النار.

ومما يدل على أن استيفاء الأجر بالنسبة لمن يدخل النار لا يكون إلا بعد الخروج منها ما في البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله ﷻ: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[١٦٥]. فعلى هذا: فإن الله ﷻ يعذب العاصي في النار لأجل معصيته، ثم يخرجه إلى الجنة لأجل ما عمله من خير، وأهل الجنة لا يخرجون منها بدلالة الآية: ﴿**وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾

---

[١٦٣] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث: ٦٤٦٣. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ﷻ، رقم الحديث: ٢٨١٦.

[١٦٤] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٦٦.

[١٦٥] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، انظر: **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، رقم الحديث: ١٥.

[الحجر:٤٨][١٦٦]. وعليه فإنه يبطل قول المعتزلة: "إن الفاسق في حال عدم العفو عنه يخلد في النار"[١٦٧].

الخلاصة: بعد أن نظرنا إلى أدلة الفريقَين من القرآن والسنة والعقل، نجد أن الاستدلال بالآيات القرآنية يتمثل في الاعتماد الكلي على التأويل عند الطرفَين. فقد يستدل الفريق الأول بنفس الآية التي استدل بها الفريق الثاني، وإنما الخلاف في تأويلها وتوجيهها، فمن ذلك ما وقف الإمام الرازي وغيره من علماء أهل السنة والجماعة على آيات الشفاعة بنفي الله ﷻ الشفاعةَ عن الظالمين والمجرمين والفجار، الذين هم الكافرون والمشركون، بينما اعتبرها الإمام الزمخشري والمعتزلة خطابًا عامًا فتشمل الكافرين والمشركين والعصاة وأصحاب الكبائر من أهل التوحيد.

وإضافةً إلى ذلك، أن الشفاعة المنفية هي التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع، وأهل الكتاب، والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله ﷻ من القدر أي يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبةً ورهبةً، وكما يعامل المخلوقُ المخلوقَ بالمعاوضة، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين في الآخرة، ولكن قد يُخَفّف العذابُ عن بعضهم، بسبب نُصرته ومعونته، فإنه تنفعه الشفاعة في تخفيف العذاب، لا في إسقاط العذاب بالكلية، وهذا خاص بأبي طالب. وبهذا، يتبيّن أن أدلة الإمام الزمخشري والمعتزلة التي يستدلون بها في نفي الشفاعة للعصاة وأصحاب الكبائر مع أنهم في نار جهنم خالدون فيها أبدًا؛ إنما هي الأدلة التي يُستدل بها كلها في الكفرة.

ويظهر لنا أن هذه القضية متصلة اتصالًا كبيرًا بقضية الوعد والوعيد، والخلود لمرتكبي الكبائر غير التائبين، كما أن لها صلة كبرى بموضوع الإيمان ومعناه وشموليته للعمل الصالح.

---

[١٦٦] انظر: محمد بن يوسف الكافي، **الحصن والجنة في عقيدة أهل السنة**، (القاهرة: مطبعه النيل، د.ط، ١٣٢٤هـ) ص٩٩-١٠٠.

[١٦٧] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص٦٦٦.

الخاتمة

الحمد لله ﷻ الذي أعاننا بفضله ورحمته حتى نكمل هذا البحث ونوصله إلى مقاصده، وبعد مناقشة مفهوم الشفاعة الأخروية عند الإمام الزمخشري في تفسيره، قد حقق البحث أهمّ النتائج التي وردت في فصول البحث، ومنها:

١. الشفاعة لغةً تأتي بمعنى الطلب، والسؤال، والضم، والزيادة، والدعاء، والإعانة، والوسيلة، وكلها معان مترادفة تقريبًا، لتتفق مع المعنى الاصطلاحي المتمثل في زيادة المنافع وإسقاط المضار، أو زيادة المنافع دون إسقاط المضار عند البعض.
٢. من أهمّ أنواع الشفاعات الأخروية هي الشفاعة العظمى: وهي التي تكون في ذلك الموقف الرهيب يوم القيامة وذلك لإراحة الناس من عذاب ذلك الموقف، وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ بأنواعها الثمانية، وهي: أولًا: الشفاعة لفصل القضاء بين الناس. ثانيًا: الشفاعة لأهل الجنة في الإذن لهم في دخولها. ثالثًا: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب. رابعًا: الشفاعة في رفع درجات قوم من أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثوابهم. خامسًا: الشفاعة في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة. سادسًا: الشفاعة في أقوام قد أمر بهم إلى النار ألا يدخلوانها. سابعًا: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، وهذه خاصةً لنبينا محمد ﷺفي عمه أبي طالب. ثامنًا: الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ ممن دخلوا النار ليخرجوا منها.
٣. الشفاعة حق من حقوق الله ﷻ المطلقة، وعليه فإنه لا تنفع شفاعة أحد من النبيين أو الملائكة المقربين أو الشهداء أو العلماء إلا بإذن من الله ﷻ وبعد رضاه على الشافع والمشفوع.

٤. ذكرت الشفاعة في آيات متفرقة من القرآن الكريم، منها ما ينفي الشفاعة والشفيع بشكل مطلق، وأخرى تثبت ذلك بنسبة الشفاعة لله ﷻ كلها، وعن طريق تقييدها بإذنه ورضاه، وعليه لم يختلف علماء الأمة في ثبوت الشفاعة على الإجمال، وإنما خلافهم كان محصورًا في جوازها للعصاة وأصحابِ الكبائر، الذين خالفوا بذلك فريق المعتزلة الذين نفوا الشفاعة لهم.
٥. الإمام الزمخشري هو أبو القاسم محمود بن عمر "جار الله"، كان حنفي المذهب، ومعتزلي العقيدة. ولد في خوارزم سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي في جرجان سنة (٥٣٧هـ). وتفسيره الكشاف من أشهر كتب التفسير بالرأي. وقد تأثر كثير من المفسرين بدقة بلاغته وفصاحته وبيان إعجاز القرآن في ذلك.
٦. أثبت البحث أن الإمام الزمخشري كان يؤوّل الآيات القرآنية وفقَ مذهبه وعقيدته الاعتزالية، حيث ذهب إلى أن الشفاعة المذكورة في الكتاب ليست سوى رفع الدرجات وزيادة ثواب المشفوع فيهم من المؤمنين، أما العصاة وأصحاب الكبائر، فهم في نار جهنم خالدون فيها أبدًا.
٧. آمن الإمام الزمخشري بشكل راسخ أن الشفاعة لا تنفع العصاة وأصحاب الكبائر، ولكنها تنفع في زيادة الفضل للمرتضين الذين آمنوا بالله ﷻ ظاهرًا وباطنًا وعملوا الصالحات. وذلك داخل في أصل من أصول المعتزلة الخمسة وهو أصل الوعد والوعيد، كما أن لها صلة كبرى بموضوع الإيمان ومعناه وشموليته للعمل الصالح.
٨. إن آيات نفي الشفاعة خاصة بالمشركين والكافرين وأما آيات الإثبات إنما هي للموحّدين من المؤمنين، لأن الله ﷻ ارتضى إيمانهم وما يدينون به، فمن وفى منهم ما عليه من حقوق وواجبات دخل الجنة بإذن الله ﷻ، ومن لم يوف ما عليه كان في مشيئة الله ﷻ، إن شاء الله ﷻ أدخله الجنة

بإذنه، وإلا دخل النار ثم يخرج منها إما بشفاعة الأنبياء أو برحمة رب السماء، إذ لا يخلد في النار موحّد.

وفي نهاية هذا البحث المتواضع، نسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله بحثًا نافعًا للناس أجمعين. وإن أصبنا فمن الله ﷻ وحده، وإن أخطأنا فمن نفسنا ومن الشيطان، والله ﷻ ورسوله منه براء، ولا ندعي الكمال لنفسنا؛ وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوّابون.

فسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والله أعلم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (د.ت). **طبقات الشافعية الكبرى**. تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح محمود الحلو. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. (دط).

ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي، (د.ت). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. بيروت: دار الكتب العلمية. (د.ط).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م). **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتاب العربي. (ط٢).

ابن بلال، عبد الله بن موسى، (١٩٨٨م). **رسالة إلى أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري**. تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي. دمشق: مكتبة العلوم والحكم. (ط١).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م). **مجموع الفتاوى الكبرى**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عط. د.م: دار الكتب العلمية. (ط١).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **مجموع الفتاوى**، المحقق: أنور الباز وعامر الجزار. د.م: دار الوفاء. (ط٣).

ابن جرير الطبري، أبو جعفر محمد، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامي. (ط١).

ابن حنبل، أحمد، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). **المسند**. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط١).

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، (د.ت). **وفيات الأعيان**. حققه: إحسان عباس. بيروت: دار صادر. (د.ط).

ابن عاشور، محمد الطاهر، (١٩٨٤م). **التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر. (د.ط).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **تفسير القرآن العظيم**. المحقق: سامي بن محمد سلامة. د.م: دار طيبة للنشر والتوزيع. (ط٢).

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، (١٤١٤هـ). **لسان العرب**. بيروت: دار صادر. (ط٣).

أبو العز الدمشقي، علي بن علي بن محمد، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م). **شرح العقيدة الطحاوية**. حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط١١).

أمين، أحمد، (١٣٨٨هـ). **ظهر الإسلام**. بيروت: دار الكتاب العربي. (ط٥).

ايازي، محمد علي، (١٢١٢هـ). **المفسرون حياتهم ومنهجهم**. طهران: مؤسسة الطباعة والنشر وزارت الثقافة الإرشاد الإسلامي. (د.ط).

آية الله، مرتضى، (١٩٧٧م). **الزمخشري لغويًا ومفسرًا**. تقديم: حسين نصار. القاهرة: دار الثقافة. (د.ط).

الأشعري، أبو الحسن، (١٣٩٧هـ). **الإبانة عن أصول الديانة**. تحقيق: فوقية حسين محمود. القاهرة: دار الأنصار. (ط١).

الأشعري، أبو الحسن، (١٣٦٩هـ/١٩٥٠م). **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. (ط١).

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. (٢٠١٠م). **المفردات في غريب القرآن**. بيروت: دار المعرفة. (ط٦).

الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، (د.ت). **الفصل في الملل والأهواء والنحل**. القاهرة: مكتبة الخانجي. (د.ط).

الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، (١٩٩٧م). **كتاب المواقف**. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. بيروت: دار الجيل. (ط١).

الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). **الشريعة**. تحقيق محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط٣).

الآلوسي، محمود ابن عبد الله الحسيني، (د.ت). **روح المعاني.** بيروت: إحياء التراث العربي. (د.ط).

الآمدي، علي بن أبي علي بن محمد بن سالم، (١٣٩١هـ). **غاية المرام فى علم الكلام**. تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (د.ط).

الباقلاني، أبي بكر بن الطيب، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. بيروت: عالم الكتب. (ط١).

الباقلاني، أبي بكر بن الطيب، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. (ط١).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **صحيح البخاري**. تحقيق: مصطفى ديب البغا. بيروت: دار ابن كثير. (ط٣).

البغدادي، عبد الرحمن ابن شهاب الدين، (١٤٢٢هـ). **فتح الباري**. تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد. السعودية- الدمام: دار ابن الجوزي. (ط٢).

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، (١٤٢٠هـ). **معالم التنزيل في تفسير القرآن**. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط١).

البلخي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). **تفسير مقاتل بن سليمان**. تحقيق: أحمد فريد. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، (د.ت). **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. بيروت: دار الفكر. (د.ط).

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، (١٤١٠هـ). **شعب الإيمان**. تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

الترمذي، أبو عيسى، (١٤١٧هـ). **سنن الترمذي**. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. (ط١).

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، (١٤٠١هـ/١٩٨١م). **شرح المقاصد في علم الكلام**. باكستان: دار المعارف النعمانية. (د.ط).

الجديع، ناصر بن عبد الرحمن بن محمد، (١٤١٧هـ). **الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها**. الرياض: دار أطلس. (د.ط).

الجزار، عبد المعز عبد الحميد، والحليم، عبد الحفيظ محمد عبد، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **لا... بل الشفاعة ثابتة ردود العلماء على منكرى السنة والشفاعة**. القاهرة: مطابع روز اليوسف الجديدة. (د.ط).

الجرجاني، محمد السيد الشريف، (٢٠٠٤م). **معجم التعريفات**. تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي. القاهرة: دار الفضيلة. (د.ط).

الجزائري، موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر. (د.ت). **عقيدة المؤمن**. د.م: د.ن. (د.ط).

الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، (١٤٠٤هـ). **زاد المسير في علم التفسير**. بيروت: المكتب الإسلامي. (د.ط).

الجويني، مصطفى الصاوي، (١١١٩هـ). **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه**. مصر: دار المعارف. (ط٢).

حسين، أبو لبابة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). **موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها**. الرياض: دار الوفاء. (د.ط).

حسين، رضوان جمال، (٢٠٠٤م). **عرض منهجي في التفسير التحليلي: سورة النساء نموذجًا**. كوالالمبور: مركز البحوث الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. (ط١).

الحازمي، إبراهيم بن عبد الله، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). **الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة**. الرياض: دار الشريف. (ط١).

الحراصي، سلطان بن محمد بن زهران، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). **الشفاعة الأخروية**. القاهرة: مطابع النهضة. (ط١).

الحموي، ياقوت بن عبد الله، (١٤١١ه). **معجم الأدباء**. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

الحموي، ياقوت بن عبد الله، (١٤١٠ه). **معجم البلدان**. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

الحنبلي، محمد السفاريني، (د.ت). **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**. د.م: المكتب الإسلامي. (ط٣).

الحنفي، الملاّ علي القاري، (١٤٠٤ه/١٩٨٤م). **شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة**. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

الحوفي، أحمد محمد، (١٩٨٠م). **الزمخشري**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (د.ط).

خير الدين، نعمان، (د.ت). **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**. مصر: مطبعة المدني. (د.ط).

الخالدي، صلاح عبد الفتاح، (١٤٢٣ه/٢٠٠٢م). **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**. دمشق: دار القلم. (د.ط).

الذهبي، محمد حسين، (١٤٢٦ه/٢٠٠٥م). **التفسير والمفسرون**. القاهرة: دار الحديث. (د.ط).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (١٤٢٠ه/٢٠٠٠م). **إثبات الشفاعة**. الرياض: مكتبة أضواء السلف. (د.ط).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (١٣٧٦ه/١٩٥٧م). **تذكرة الحفاظ**. الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. (ط٣).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (١٤١٢هـ). **سير أعلام النبلاء**. حققه وأخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط٨).

رشيد رضا، محمد، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). **تفسير المنار**. تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط١).

الراجحي، عبد العزيز بن عبد الله، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). **الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية عقيدة أَهْل السنة والجماعة**. الرياض: دار التوحيد. (ط١).

الرازي، فخر الدين، (١٤٠١هـ/١٩٨١م). **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار الفكر. (ط١).

الرازي، فخر الدين، (١٩٨٨م). **الشفاعة العظمى في يوم القيامة**. تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد حجازي السقا. القاهرة: المكتبة الأزهرية. (ط١).

الرازي، فخر الدين، (د.ت). **الأربعين في أصول الدين**. حيدر آباد- الدكن: مجلس دائرة المعارف العثمانية. (د.ط).

زغلول، السحات السيد، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). **الاتجاهات الفكريّة في التفسير**. اسكندرية: دار النجاح. (ط٢).

الزركلي، خير الدين، (١٩٩٢م). **الأعلام**. بيروت: دار العلم للملايين. (ط١٠).

الزمخشري، محمود بن عمر، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض. الرياض: مكتبة العبيكان. (ط١).

سابق، السيد، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م). **العقائد الإسلامية**. بيروت: دار الفكر. (د.ط).

سبحي، أحمد محمود، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). **في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة ١)**. بيروت: دار النهضة العربية. (د.ط).

السبحاني، جعفر، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **الشفاعة في الكتاب والسنة**. بيروت: دار الأضواء. (ط٢).

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، (١٣٥٥هـ). **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. مصر: د.ن. (د.ط).

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، (١٤٢٦هـ). **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي. (ط٢).

السيوطي، جلال الدين، (١٣٨٤هـ). **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مطبعة البابى الحلبي. (ط١).

السيوطي، جلال الدين، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). **الإكليل في استنباط التنزيل**. دراسة وتحقيق: عامر بن علي العرابي. جدة: دار الأندلس الخضراء. (ط١).

السمعاني، أبو سعد، (١٤٠٠هـ). **الأنساب**. تحقيق: عبد الرحمن المعلمن. بيروت: محمد أمين دمج. (ط٢).

السمعاني، أبو سعد، (١٣٩٦هـ). **طبقات المفسرين**. تحقيق: على بن عمر. القاهرة: مكتبة وهبة. (ط١).

شاكر، محمد فؤاد، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **إظهار الشناعة في الرد على منكر الشفاعة**. القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ. (ط١).

شريف، السيد أحمد، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **الشفاعة عقيدة أهل السنة والجماعة ورد شبهات المنكرين قديمًا وحديثًا**. مصر: دار الدندرة. (د.ط).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد، (د.ت). **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. (د.ط).

الشوكاني، محمد بن علي، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). **البدر الطالع المحاسن من بعد القرن السابع**. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

الشوكاني، محمد بن علي، (١٤٠٣هـ). **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. بيروت: دار الفكر. (د.ط).

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م). **الملل والنحل**. تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور. بيروت: دار المعرفة. (ط٣).

الشهير، أحمد بن مصطفى، (د.ت). **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**. تحقيق: كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور. مصر: دار الكتب الحديثة. (د.ط).

الشيباني، على بن محمد، (د.ت). **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر. (د.ط).

الصالح، صبحي، (١٩٧٧م). **مباحث في علوم القرآن**. بيروت: دار العلم للملايين. (ط١٠).

الصبحاني، جعفر، (١٤٢٠هـ). **مفاهيم القرآن**. قم: مؤسسة الإمام الصادق. (د.ط).

عبد الحليم محمود، منيع، (١٩٧٨م). **مناهج المفسرين**. القاهرة: دار الكتاب المصرى. (ط١).

علي أمير، جابر إدريس، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة**. الرياض: مكتبة أضواء السلف. (ط١).

العثيمين، محمد الصالح، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية**. خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل. الرياض: دار ابن الجوزي. (ط٧).

العثيمين، محمد الصالح، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **شرح العقيدة السفارينية لمحمد بن أحمد بن سالم بن سليمان الحنبلي**. خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد. القاهرة: مكتبة الصفا. (ط١).

العثيمين، محمد الصالح، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). **جامع شروح لمعة الاعتقاد لإبن قدامة المقدسي**. مع أسئلة وأجوبة: عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين. القاهرة: دار ابن الجوزي. (ط١).

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. نقحه وصححه: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط٤).

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (١٩٤٥هـ/١٩٥٠م). **الدرر الكامنة في أعيان المنة الثامنة**. حيدر آباد: د.ن. (د.ط).

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (١٣٩٠هـ). **لسان الميزان**. بيروت: مؤسسة الأعلمي. (ط٢).

العمادي، أبو السعود محمد بن محمد، (د.ت). **تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (د.ط).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م). **المعجم الكبير**. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. الموصل: مكتبة العلوم والحكم. (ط٢).

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، (١٤٣١هـ/٢٠١١م). **شرح العقيدة الطحاوية والمسمى ب (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل)**. شرحها صالح

بن عبد العزيز آل الشيخ. المملكة العربية السعودية: دار المودة. (ط١).

الطريحي، فخر الدين، (١٤١٤هـ/١٩٠٦). **مجمع البحرين**. طهران: مؤسسة البعثة. (ط١).

القاسمي، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني، (١٩٨٧م). **إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد**. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط٢).

القاسمي، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م). **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**. حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط٣).

القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط١).

القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، (١٤٢٥هـ). **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**. تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم. الرياض: مكتبة دار المنهاج. (ط١).

القطان، مناع، (١٤١١هـ/١٩٩٠م). **مباحث في علوم القرآن**. الرياض: منشورات العصر الحديث. (د.ط).

القفطي، أبو الحسن على بن يوسف، (١٤٠٦هـ). **إنباه الرواة على أنباه النحاة**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الفكر العربي. (ط١).

كحالة، عمر رضا، (د.ت). **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (د.ط).

الكافي، محمد بن يوسف، (١٣٢٤هـ). **الحصن والجنة في عقيدة أهل السنة**. القاهرة: مطبعه النيل. (د.ط).

الكفومي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. بيروت: مؤسسة الرسالة. (د.ط).

الكلبي، محمد بن أحمد بن جزي، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). **التسهيل لعلوم التنزيل**. ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاثم. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

متز، آدم، (١٣٨٧هـ). **الحضارة الإسلامية**. تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريده. بيروت: دار الكتاب العربي. (ط٤).

مسلم، أبو الحسين، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **صحيح مسلم**. الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع. (د.ط).

المجلسي، محمد باقر، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). **بحار الأنوار**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط٣).

المحمدي، عبد القادر مصطفى عبد الرزاق، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). **الشفاعة في الحديث النبوي**. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط١).

المكي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي، (١٤٠٦هـ). **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**. تحقيق: فؤاد سيد. بيروت: مؤسسة الرسالة. (ط٢).

المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد، (١٩٠٩م). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. بيروت: دار صادر. (ط٢)

النووي، يحي بن شرف، (١٣٤٧هـ/١٩٢٩م). **شرح مسلم**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط١).

الوادعي، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي، (١٤٠٢هـ/١٩٨٣م)**. الشفاعة**. الكويت: دار الأرقم. (ط٢).

الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد**. تحقيق: زهير شاويش. بيروت: دمشق: المكتب الإسلامي. (ط١).

الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). **التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**. الرياض: دار طيبة. (ط١).

الوهاب، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). **مصباح الظلام في الرد على من كذب**

الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام. د.م: وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والأرشاد. (ط١).

هاشم، أحمد عمر، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). **الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها**. القاهرة: مركز الصالح كامل. (د.ط).

الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م). **شرح الأصول الخمسة**. تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: عبد الكريم عثمان. القاهرة: مكتبة وهبة. (ط١).

الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م). **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق: فؤاد سيّد. تونس: دار التونسية. (ط٢).

الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد، (١٩٦٩هـ). **متشابه القرآن**. تحقيق: عدنان محمد زرزور. القاهرة: دار التراث. (ط١).

اليماني، يحيى بن أبى الخير، (١٩٩٩م). **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**. تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف. الرياض: أضواء السلف. (د.ط).

الإنترنيت

http://ar.wikipedia.org/wiki

http://www.islamic-council.com

http://www.islamiyyat.com/hedaya6.htm

http://www.saaid.net/Warathah/1/shankeety.htm

http://www.alagidah.com/vb/archive/index.php/t-3201.html

http://www.fatihsyuhud.org/2014/03/mawqif-mutazilah-shafaah-nabi.html